

الاقتراب إلى الله

الإقـــــتراب إلى الله

تأليف

دكتور القس فايز فارس



طبعـة ثانية

صدر عن دار الثقافة ص ب ١٣٠٤ – القاهرة

١٠ / ٤١٦ ط٢ (أ) (س ٨٥ – ٨٦) ٣ – ٨

رقم الايداع بدار الكتب : ٣٢٥٨ / ١٩٨٦

طبع بمطبعة : دار نوبار للطباعة – شبرا – القاهرة

إخراج فني: عادل لبيب

محتويات الكتاب

هـــذا الكتـــاب

دراسة جديدة ، فى موضوع لم يطرق من قبل ، عن اللقاء بين الإنسان وخالقه ، أو ما اصطلحنا على تسميته بالعبادة . ومع كثرة استخدامنا لكلمة العبادة ، صارت بلا مضمون ، أو أصبح لها مفاهيم مختلفة فى أذهان الناس .

وليس الهدف من هذا الكتاب وضع لوائح محددة لنظام اللقاء مع الله ، أو نماذج ثابتة للعبادة ، لكن الكاتب يناقش الموضوع بدءاً من تعريف العبادة ، ومروراً بأهميتها ، وهل هى ضرورية ، أم يكفى أن يعرف الإنسان تعاليم الدين وأن يسلك سلوكاً مرضياً . وسيدهشك أيها القارىء العزيز أن تكتشف أننا حين نعبد الله فإن كلا منا يعبد إلها يصنعه لنفسه بحسب فهمه هو ، ويريد الكاتب أن يصحح مفهومنا عن الله عز وجل لنعرف الإله الذى نعبده ، فنتقدم إليه فى زينة مقدسة وتقوى .

ثم يصل بنا الكتاب إلى مفهوم العلاقة الصحيحة بين الإنسان والله .

أرجو أن نستمتع بهذه الدراسة وأن تكون دافعة لك لمزيد من العبادة الواعية .

دار الثقافة

ما أحلى اللقاء مع الحبيب !!...

وقد يكون هذا اللقاء روحياً ، لا تستمتع به الحواس الظاهرة ، لكن القلب يسعد به ، والروح تتلذذ بمذاقه المتسامى عن المادة . إن مأساة البشر هى أنهم يهتمون بالمنظور ، ويتركون غير المنظور ، وهذا مصدر شقاء البشر وتعاستهم ، ذلك لأن أهم الأشياء والقيم هى تلك التى لا نراها بالعين . وأصدق وجود هو وجود القيم غير المنظورة .

والناس فى عصر العلم يريدون أن يروا كل شيء تحت المنظار ، وأن يقيسوا كل شيء بمقاييس متنوعة ، ويزنوه بالميزان ، ويضعوه تحت الميكروسكوب . وإنك لتستطيع أن ترى جرثومة المرض تحت الميكروسكوب ، لكنك لا تستطيع أن ترى عاطفة الأمومة ، فهل معنى هذا أن عاطفة الأمومة شيءٌ وهميّ لأنكَ لا تراها ؟ – كلا ... فعاطفة الأمومة وجودها أصدق من وجود الجرثومة ، فقد تكون مخطئا فى تشخيص الجرثومة ونوعها ، لكن عاطفة الأمومة لا يمكن الخطأ فيها .

إن أروع الأشياء وأصدقها هى التى لا نستطيع أن نراها بالعين أو نلمسها باليد ... الرجاء ...الايمان ... المحبة ... الثقة ... السلام ... فتعالوا بنا الى لقاء رائع ، وشركة محببة الى النفس ، مع ذلك الحبيب الذى لا نراه بالعين ، لكن حبّه يملأ كياننا ويغمر وجداننا ... وقد كتب أحد الشعراء المتصوفين الألمان (جان تولر) قصيدة يعبّر فيها عن اكتمال سعادته عندما تأكد أن الله قد ملأ كيانه فقال :

«فى وسعى اليوم أن أموت ، مادمت قد أبصرت الذى أحبه يستفيق فى أعماق نفسى ...

لقد استيقظ ندّيا كالسَحَر ، مبتهجاً كالفجر ، متألقا كالنهار ، ساطعا كشمس خالدة ... هو ربى الذى أعبد ، وهو ربى الذى أعشق ، وهو ربى الذى من أجله يهون الألم والعذاب والموت ...

إنه ليصهر فؤادى كما تصهر النار سبيكة الذهب ، ويتغلغل فى عظامى كما يتغلغل الدفء المبارك فى عظام شيخ محطمّ ، ويندمج فى كيانى كما يندمج العطرْ فى الزهرة ، والثمرة فى الشجرة ، والنور فى الظلام ....

فى الطهر يعيش الله كما تعيش العفة فى جسم عذراء ...

فى التواضع يعيش الله ، كما تعيش البنفسجة فى الوادى ..
فى القداسة يعيش الله ، كما يعيش الماء الزاخر فى الجدول الرقراق ...

في الجمال يعيش الله ، كما تعيش الدنيا بأسرها في هزيم الحركة ، وقصف البركة ، وانبلاج الفجر ، وتلألؤ الأضواء .

فهبنى يا الهى نعمة الطهر لكى أتحد
معك فأصبح فى طهارة العذارى ...
وامنحنى يا الهى فضيلة التواضع
لأتعلم منك فى وداعة البنفسجة ...
وأفض عليَّ فيض القداسة لكى
تغتسل حياتى فى مياهك الزاخرة ..
وظللنى يا الهى بروائع جمالك
لكى أسبّح بحمدك دنيا وآخرة ... »
فما أحلى اللقاء ...

إنه يستحق منا التأمل والدراسة الجادة ، والفكر المتعمق ...
لذلك فقد سعدت عندما دعانى الاخوة المباركون من مدينة تورنتو بكندا لألقى رسائل روحية

ودراسية فى مؤتمرهم السنوى الذى عقد فى صيف عام ١٩٨٤ على ضفاف بحيرة اونتاريو فى مصيف كوبرج ... وطلبوا أن يكون موضوع هذه المحاضرات عن «العبادة المسيحية» ، اذ كان شعار مؤتمرهم «أنت مستحق» ...

وإنى أشكرهم لأجل دعوتهم التى أتاحت لى فرصة الشركة الجميلة معهم فى حرارة المودة المسيحية ، ودفعتنى إلى دراسة جانب من هذا الموضوع الرائع ... فإليهم ، وإلى كل من يطلبون بركة اللقاء أهدى هذا الجهد المتواضع .

الفصل الأول

العبادة

بين الإيمان والأعمال

لم تعد صورة الانسان المتعبد تستهوى الناس فى هذا العصر المزدحم بالعمل والجدل . إن وقت الناس قليل ، وهم يلهثون رائحين غادين من بيوتهم الى أعمالهم ، والفكر منشغل بشواغل الحياة ومشكلاتها المتنوعة ، فاذا ما وجدوا ساعةً أو بعض ساعة ، فهم يشعرون أنهم فى حاجة الى الراحة من عناء العمل ، فلعل فترة استرخاء تعيد اليهم شيئاً من النشاط المطلوب ، فى عالم يمتصّ كل طاقتهم ، ثم يطلب المزيد ...

فكيف يمكن أن نتصور إنسانا فى عالم اليوم يقضى وقتا فى جهاد روحى ، أو فى خلوة تعبد ، أو ينتظم مع جماعة فى شركة وتسبيح

وتمجيد ، أو يضع برنامجا لصلواته وقراءاته فى الكتاب المقدس ؟ وما قيمة الصلوات وفترات العبادة فى وسط هذا العالم المزدحم بالأفكار المتصارعة ، والنشاطات المتنوعة ؟!! إن مجرد الاشارة الى العبادة والصلاة يسبّب أحيانا بعض الحرج لمن يمارسونها ، لدرجة أن البعض يحاول أن يخفف منها ، أو على الأقل يختصرها فى أقل وقت ممكن ، شأنهم فى ذلك شأن أبناء هذا العصر الذين يريدون أن يختصروا العلم فى صفحة ، والزمن فى لحظة ، والعلاج فى كبسولة ... فماذا يُضير لو اختصرنا الصلاة فى عبارة أشبه ما تكون ببرقية ، والتعبد فى انحناءة سريعة ، والتسبيح فى قرار ، والعظة فى فكرة عابرة !؟!

بل أن بعض الناس يرون فى العبادة نوعاً من السذاجة التى لا تليق بالناضجين ، فيرون فيها إفراطا فى الذاتية والانفعالية أو العاطفية ، والبعض يراها تعبيراً عن ميل نفسىّ أشبه بالماسوشية التى يتلذذ الانسان فيها بتحقير نفسه ، فيرى نفسه عبداً ذليلًا . والبعض يرى فى العبادة انعزالًا عن الحياة العملية فهى فى نظرهم أسلوبٌ هروبى من مشكلات الحاضر ، بآمال أشبه بأحلام اليقظة التى يصطدم الانسان ، بعد الاستفاقة منها ، بالواقع المرير .

لقد أصبح مفهوم المسيحية فى نظر كثيرين قاصراً على المبادىء الأخلاقية السامية التى جاءت فى تعاليمها ، وعلى الايمان بالشخصية الفريدة ليسوع المسيح ... أو ليس هذا كافيا ليكون الانسان مسيحياً ؟!! فلماذا العبادة إذاً ؟

إن الهدف من هذه الدراسة ليس محاولة تبرير العبادة أو الدعوة اليها، لكننا نريد أن نبحث عن الحقيقة بأسلوب موضوعيّ ، ملتمسين أن نجد فى كلمة الله ، وفى اختبارات البشر الصادقة ، نوراً يهدينا ، متفتحين قلبا وعقلا لروح الله يرشدنا ، دون أن نخشى أن ننظر نظرة ناقدة إلى أنفسنا ، والى عبادتنا ... فقد يكون العيب ليس فى فكرة العبادة ذاتها ، بل فى مفهومنا نحن لها ، أو لحقيقة الإله الذى نعبده ، ومن ثمَّ تتخذ عبادتنا شكلا يسىء الى فكرة العبادة ذاتها .

أولًا : المسيحية كعقيدة وحياة وعبادة

إن المسيحيةوحدة شاملة لجوانب متعددة لا يمكن أن نفهم جانبا منها بمعزل عن الآخر ، وإلا تعرضنا للخطأ . هى أسلوب شامل للحياة يحتوى على عقيدة نؤمن بها ، وحياة نحياها ، وعبادة نتعبد بها . وقد قيل فى سفر الجامعة إن «الخيط المثلوث لا ينقطع سريعاً» (جا ٤ : ١٢) وقوة المسيحية فى هذا النسيج المركبّ من هذه الجوانب الثلاثة لتشمل الحياة كلهّا . وقد ذكرت كلمة «نسيج» لأن هذه الجوانب متداخلة بعضها فى بعض ، ويقوّى أحدها الآخر ، فإذا تواجدت هذه الجوانب الثلاثة معاً ، كانت المسيحية راسخة ، أما إذا فصلنا أحدها عن الآخر فسوف يضعف كل جانب منها .

١ – وقد حدث فى وقت من الأوقات فى تاريخ الكنيسة ، أن اهتم قادتها اهتماما بالغاً بالعقيدة السليمة ، وكان المسيحىّ الحقيقى فى نظرهم

هو من يؤمن بعقيدة مستقيمة ، واعتبروا كل من خالف هذه العقيدة المتفق عليها غير أرثوذكسى العقيدة (غير مستقيم العقيدة) واتهم بالهرطقة . ومن يقرأ تاريخ الكنيسة فى عصورها الأولى حتى العصور الوسطى ، لا تفوته هذه الملاحظة . فالعقيدة السليمة كانت أهم شىء . وكم من أناس حوكموا وعذبوا فى محاكم التفتيش ! وكم أحرق منهم ! ، كما قتل البعض الآخر بتهمة الكفر والهرطقة ... ونحن لا نريد أن نحكم على الماضى بمقاييس العصر الحاضر ، كما أننا لا نستطيع أن نعود بعجلة التاريخ الى الوراء ونضع أنفسنا فى موقف قيادات الكنيسة حينذاك . وقد يكون من العوامل التى شجعت على هذا الموقف ، أن الجدل الفكرى الفلسفى كان السمة الظاهرة لذلك العصر ، وأن الكنيسة كانت تريد أن تحتفظ بنقاوة تعاليمها فى وسط تشعب الأفكار والنظريات ، أو أنها أرادات أن تضمن وحدتها وعدم تمزيق صفوفها فى العصور الأولى من تاريخها .

على أنه من المؤكد أن ذلك الاتجاه جعل علم اللاهوت مجرد جدل فكرى أكاديمى خال من الحياة ، وبعيد عن المشكلات الواقعية للكنيسة ، فقد كان اللاهوتيون يتلذّذون باظهار الفروق النظرية الطفيفة بين الآراء والمعتقدات .

ولا يمكن أن ينكر أحد أهمية العقيدة ، وضرورة توضيح معنى الإيمان المسيحى ، إلا أن علم اللاهوت يجب أن يكون مرتبطا بحياة الكنيسة ، ولا يكون مجرد رياضة عقلية نسعى اليها لذاتها . إن الكتاب المقدس

نفسه الذى نستخلص منه العقيدة ونؤسسها عليه هو رواية لتعاملات الله مع الناس ، وخبر عن حياة وموت وقيامة المسيح الذى أعلن بشارة الخلاص للبشر ، ولذلك فإن مثل هذا الإعلان الإلهى لا يمكن أن يُجمَّد فى صياغة عبارات ونصوص تحتويها كتب العقيدة بل يجب أن تكون العقيدة ملامسة لحياة البشر ومشكلاتهم ، وواسطة يفهمون من خلالها تعامل الله معهم فى المواقف المختلفة .

ولعل أبلغ نقد للعقيدة المجرّدة المنفصلة عن الحياة هو قول العهد الجديد فى رسالة يعقوب : «أنت تؤمن أن الله واحد . حسنا تفعل . والشياطين يؤمنون ويقشعرون» (يع ٢ : ١٩) – إن الايمان الذى لا يتعدّى الموافقة العقلية إيمان ضعيف أو بالأحرى إيمان ميّت ، ولا يمكن أن يكون هو الايمان العامل بالمحبة . وربما كان كثيرون ممن تواجههم اليوم صعوبة فى الايمان بالله ، هم – الى حد ما – ضحية تقديم العقيدة كحقيقة عقلية مجرّدة دون ارتباطها بالحياة .

٢ – على أننا نلاحظ أن «البندول» اتجه حديثا الى الناحية الأخرى ، وهى جانب الأعمال . وابتدأنا نسمع شعارات متعددة فى هذا الاتجاه مثل القول «خذ ديانتك معك الى الشارع والى السوق والى مكان العمل» أو «الدين المعاملة» أو «لا تسألنى ماذا تعتقد بل ماذا تعمل» .. وهكذا .

وقد صاحب التركيز على هذا الجانب العملىّ ، الاقلال من أهمية العقيدة ، وأصبح المهم هو أن تعيش حياة مسيحية صالحة ، وتحب

قريبك ، وتحقق أهداف ملكوت الله فى حياتك ، وهذا يكفى . ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه المتطرف للتركيز على جانب الأعمال ، انما هو رد فعل للاتجاه المغاير فى العصور السابقة حين كان التركيز على العقيدة وحدها ، وهو فى نفس الوقت محاولة لتحريك الكنيسة للعمل لتتغلب على جمودها ، وصيرورتها كنيسة تقليدية رسمية . لكن الخطر يكمن فى أن من ينحازون للجانب العملى ، ينتقصون – سواء أعلنوا ذلك أم لم يعلنوه – من قدر العوامل الأخرى التى لها نفس اهمية العمل . فكما أن الايمان دون أعمال تصوّر ممسوخ للمسيحية ، كذلك العمل الغير المؤسس على العقيدة ، هو أيضا تصوّر غير صحيح للمسيحية يحوّلها الى مجرد اتجاهات خيرية انسانية أو أعمال شفقة اجتماعية ، ذلك لأن مفهوم الأعمال فى المسيحية مؤسس على فهم صحيح للعقيدة .

فمثلا الدعوة الى محبة القريب (وهى الشعار المفضّل عند أصحاب الاتجاه العملى) ، ستظل شيئا غامضا محيّرا غير محدد الى أن نعرف معنى المحبة . بل إن مثل هذه الدعوة قد يساء استخدمها ، فتتحول الى دعوة الى الليونة والميوعة والتدليل والتهاون باسم المحبة وتحت ستارها ، لأن للمحبة معانى كثيرة ، وأكثرها يُساء استخدامه . فقد يتصور العامل المهمل أن المحبة تقتضى من رئيسه التجاوز عن تقصيره واهماله ، وقد يتصور الشاب أن المحبة تسمح له ببعض التجاوزات فى علاقاته ، ارضاء لنزواته العابرة ، أو قد يتصور البعض أن المحبة انحيازٌ دون عقل أو عدل . ونحن ما لم ندرس العهد الجديد لنفهم معنى المحبة ، ونراها كما أظهرها الله

فى المسيح ، مرتبطة بالعدل والعقاب والألم الكفارى من أجل الغفران الى غير ذلك من المعانى ... وما لم ندرس العقيدة التى توضح لنا هذه المعانى لتميز المحبة المسيحية عن بدائلها السهلة ، فإن دعوتنا لمحبة القريب تكون بلا مضمون ، بل قد تصير لغوا نضارب به الهواء ، أو ضرراً أكثر منها نفعاً .

وعلى نفس المنوال يكون حديثنا عن تمجيد الله ، وتحقيق أهداف ملكوت الله ... إننا نتعرض للأحاديث الحماسية الخطابية بلا مضمون ، أو للاهتمامات الذاتية ، ما لم ندرس لاهوتيا معنى ملكوت الله وطبيعته ومسئوليتنا فيه .

إننا إذاً نحتاج الى العقيدة لتفسر لنا المعانى وتنير لنا طريق العمل المسيحى . فالعمل المسيحى لا يمكن ان يُمارس بطريقة فعّالة ما لم يستند إلى عقيدة واضحة مفهومة . وفى التاريخ الحديث اعترف أصحاب فكرة الانجيل الاجتماعى بفشل فكرتهم وقالوا «إن الانجيل الاجتماعى يحتاج الى عقيدة لاهوتية لتجعله فعّالًا ومؤثرا ؟ والعقيدة تحتاج الى بُعْدٍ اجتماعى ليعطيها الحركة والحياةً» .

٣ – نأتى الآن الى العامل الثالث وهو العبادة . هل لها ضرورة وقيمة أم أنها صارت شيئا مهجوراً فى العصر الحديث ؟ إننا نلاحظ أن الذين يحضرون خدمات العبادة فى الكنائس أصبحوا قليلين ، والبعض ينظر الى فرص العبادة باعتبارها نوعا من الكماليات التى لا يستطيع الانسان صاحب البرنامج المزدحم أن يصرف فيها وقتا ، والبعض يرون أنها من

مخلّفات الماضى ويتقبلّها كأسلوب لأقلية من الناس أكثرهم من العجائز . وبعض الكنائس تحاول أن تستعيض عن فرص العبادة بالحفلات والرحلات والمناسبات الاجتماعية ، بل أن البعض يحاول إدخال الترانيم فى المناسبات الاجتماعية كنوع من الأغانى الشعبية التى تعتبر وسيلة لادخال السرور والبهجة على نفوس الحاضرين ... ولا بأس من أن نبدأ الحفلة ونختمها بصلاة قصيرة ... لكن حقا نزلت العبادة وتمجيد الرب فى زينة مقدسة ، الى هذا الحد ؟!!

ولكى نكون منصفين يجب أن نعترف بأن بعض هذه الاتجاهات نحو الاقلال من أهمية العبادة جاء أيضا كرد فعل لاهتمام بعض الكنائس بالعبادة وطقوسها بمعزل عن التعليم العقائدى والحياة العملية ، بحيث أصبحت العبادة فى بعض الأحيان مجرد ترديد كلمات وعبارات بأدنى حد من الوعى والفهم .

لكننا نرى أنه إذا وضعت العبادة فى مكانها الصحيح ، وسط الواقع المسيحى ، فإنها تكون أمراً لا يمكن الاستغناء عنه ، بل تصبح حلقة الربط الصحيح بين الايمان والحياة ، أو بين العقيدة والعمل . وهذا ما نرجو توضيحه الآن .

ثانيا : العبادةُ لفظاً ومعنى :

لا نريد أن ندخل فى متاهات الأصول اللغوية للفظ «عبادة» فإنه يختلف من لغة الى أخرى . وجميع اللغات قاصرة عن التعبير عن مضمون

معنى العبادة لأنها تعبّر عنها فى ضوء العلاقة بالمحسوسات ، وما أبعد الفرق بين علاقة الانسان بالمحسوسات مهما سما قدرها ، وبين اقترابه الى الله وعلاقته به ، وهو تعالى المنزّه والمتسامى فوق كل ادراك بشرى . ولكننا لا نملك وسيلة أخرى غير اللغة بها نعبّر عن أفكارنا ، فنحن نستخدم تعبيرات معيّنة للتعبير عما نقصده من معانٍ ، ولذلك يجب أن نلاحظ دائما فى حديثنا عن الإلهيات أن المعنى المراد التعبير عنه ، أكبر وأوسع دائما من اللفظ المستخدم لوصف هذا المعنى .

ففى اللغة العربية يرجّح أن « عبادة » مرتبطة بمعنى الخضوع الكامل للسيد القوى أو الملك الجبار الذى يعتبر الناس جميعا (عبيداً)بالنسبة له . فالله هو السيّد ، وجميع الناس «عبيد» له وهو معبودهم . ثم اختص لفظ (العباد) لوصف جميع الناس من حيث علاقتهم بالله .

ولعل شيئا قريبا من هذا نجده فى الكلمة الانجليزية «Worship» وأصل الكلمة فى اللغة الانجلوسكسونية «Worth ascribe» أو «Woerth scipe» تحولت الى «Worthship» ومعناها الاستحقاق والقيمة ثم تطور اللفظ الى ما هو عليه الآن «Worship» . فيقال عن القاضى مثلًا «His Worship» أى سيادة القاضى ، فالكلمة تدل على التعظيم والتوقير والتبجيل .

وفى الانجليزية كلمة أخرى هى «Adoration» وتترجم الى عبادة أو توقير أو هيام أو افتتان وهى من الكلمة اللاتينية «Ad - Orare» ومعناها «الاتجاه الخاشع المتوجه نحو ....» وربما كانت هذه الكلمة أكثر

الكلمات توضيحا لمعنى العبادة لأنها تتضمن فى معناها فكرة الخروج من الذات والاتجاه نحو هدف خارج الذات ، فهى تشير الى توجه الانسان نحو حقيقة أكبر وأعمق وأنقى من الذات الانسانية ، وبذلك فانها تتعدى وتتجاوز ما تعودنا عليه من توقير للشخصيات البشرية أيا كان مقامها ، لتشير الى معنى أعمق يصعب التعبير عنه باللغة .

وقد حاول أحد اللاهوتيين (تليهارد Teilhard) وصف العبادة ، فقال :

«العبادة هى أن يفقد الانسان ذاته فى أعماق لا يُسبر غورها ، وأن يغطس فيما لا ينضب ، وأن يجد السلام فى كيان لا يقبل الفناء ، وأن يُستغرَق فى اتساع لا حدود له ، وأن يخضع ذاته لتمحيص النار والشفافية ، وان يقدّم أعمق ما لديه لذاك الذى لا حدود لأعماقه»

ليس هذا تعريفا للعبادة ، وقد نشعر أننا لا نستطيع أن نفهم أعماق هذه التعبيرات ، لكنه يعطينا وصفا لشعور العابد الحقيقى واحساسه . ونحن نصف العبادة من واقع اختبارات المتعبدين ، ونظل عاجزين عن تحديدها بوصف معيّن بالذات ... ولعلنا نستطيع بعد أن ندرس شيئا أو لمحة عن الله الذى نتعبد له ، أن ندرك عمقا آخر من ذلك الوصف ، فنفهمه أكثر .

وقد أشرنا من قبل إلى أن هناك من انتقدوا العبادة ووصفوها بأنها تحقير للذات أمام المعبود ، أو افراط فى الذاتية ، أو هروب من الواقعية .

لكننا نريد أن نوضح هنا أن هذه النظرة إلى العبادة ، أو تلك النظرة ، إنما هما نتاج عدم الفهم الصحيح لمعنى العبادة .

فالعبادة ليست تحقيرا للذات أمام الله ، بل على العكس . فإن الانسان لن يجد ذاته الحقيقية إلا بالتجرد من مظاهر الأنانية . وفى اتضاع الانسان أمام الله يتنقّى وينمو فى مشابهة الله ، فيشعر بكرامته الحقيقية كمخلوق على صورة الله ، وهكذا يصدق قول المسيح : «من وجد حياته يضيعها ، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها» . والعبادة تؤكد للانسان مكانته باعتباره مخلوقا روحيا ، وهكذا تؤكد كرامته وحريته وتثرى حياته ، ولذلك قال أحد الكتاب : «إن العبادة تزيد من قيمة وجودنا الذاتى عن طريق خروجنا من الذات» . وما أكثر التناسق بين هذه الفكرة ، والتعريف الذى يقدمه أستاذنا البروفسور الدكتور بول ليمان عن النضوج فى المسيحية فى كتابه «الأخلاق فى الاطار المسيحى» عندما عرّف النضوج فى المسيحية بأنه «تحقيق الذات عن طريق عطاء الذات لله وللآخرين» .

كما أن العبادة الصحيحة ليست مجرد اشباع وقتى لحاجة النفس الحاضرة الى السكينة والهدوء ، ولكنها فى نفس الوقت تطلُّع بأمل الى المستقبل . وهى ليست هروبا من العالم الحاضر بأحلام انتظار السماء ، ولكنها قوة حاضرة للحياة اليومية . وربما كان اتهام المتعبدين بالسلبية والهروب من الواقع ، يرجع الى الممارسات الخاطئة التى يمارس بها بعض الناس عبادتهم وهم يغمضون عيونهم عن مشكلات المجتمع السياسية

والإجتماعية والاقتصادية ، متصوّرين أن الروحانية والتقوى معناهما تجاهل المشكلات فى تواكل وسلبية ولا مبالاة بما يحدث حولهم . وهذا فهم خاطىء لدور العباده فى الحياة المسيحية . فكما أن العمل دون عبادة استهانة بشخصية الله الضابط الكل والذى بيده أمرنا ، كذلك العبادة دون عمل استخفاف بصورة الله التى خلق عليها الانسان والتى تحمل معنى المسئولية والانشغال بحياة العالم الذى نعيش فيه .

ثالثا : العبادة كترويض للنفس

العبادة المسيحية لقاء بين الانسان من جانب ، وبين الله ، فى المسيح ، من الجانب الآخر . وعلى هذا الأساس يمكن أن ننظر الى العبادة من زاويتين : الزاوية الأولى هى العبادة باعتبارها موجهة إلى الله لتمجيده .

والثانية هى أثر الحضور الإلهى فى تغيير الحياة الانسانية .

هاتان النظرتان تكمّل إحداهما الأخرى ولا يمكن فصلهما عن بعض .

فنحن لا نستطيع أن نتجاهل أن الله يأمرنا أن نقدم له التمجيد والسجود والعبادة ....«قدموا للرب مجداً وقوة . قدموا للرب مجد اسمه (مز ٩٦) على أننا ونحن نقدم هذا المجد والتعظيم لله ، لا نقدمه لله كأننا نضيف الى الله شيئا جديداً يسرُه ويرضيه كما يفعل الناس عند تعظيم الملوك والسلاطين ، أو أننا بذلك نسترضيه كما يفعل الناس مع أصحاب

السلطان الأرضى ؟ إن مثل هذا الإكرام الخارجى يحوّل العبادة الى تحقير لله . فمن هو الانسان حتى يقدّم لله شيئاً ؟ إن لله مجده الذاتى الذى هو منذ الأزل لا يزيد ولا ينقص كما قيل فى سفر أيوب :«إن اخطأتَ فماذا فعلتَ به ، وان كثُرت معاصيك فماذا عملتَ له . ان كنتَ باراً فماذا أعطيتَه أو ماذا يأخذه من يدك . لرجلٍ مثِلك شرُّك ، ولابن آدم برُّك (أى ٣٥ : ٥ - ٨)

ولكننا فى نفس الوقت لا يمكن أن نقول إن الله لا يبالى بما نقدّمه له من سجود وعبادة ، وذلك لأن الله قد خلقنا مخلوقات حرَّة ومسئولة ، وهو يطلب منا أن نعمل معه فى بنيان خليقته فى المحبة والبرّ . وعبادتنا لله ليست شيئا نفعله له ، وإنما هى تجاوب مع ما عمله لأجلنا وما زال يعمله . فالله صنعنا على صورته لذلك نجد فى أنفسنا الرغبة أن نعبده ، وأن ننمو فى التشبّه به . إن روح الله الذى يعمل فينا يقودنا إلى عبادة مصدر كياننا وطلب نعمته فينا .

وإذ ننظر من الزاوية الأخرى وهى أثر الحضور الالهى فى حياة الانسان ، لا يجب أن نفكر فى هذه الآثار باعتبارها هدفا للعبادة ، وإلا كانت عبادتنا إفراطاً فى الأنانية وليست تجاوبا مع الله . وقد كانت هذه هى شكوى الشيطان ضد أيوب عندما تساءل :«هل مجانا يتقى أيوب الله ؟ . أليس أنك سيجّت حوله وحول بيته وحول كل ما له من ناحية باركت أعمال يديه .... ولكن ابسط يدك الآن ومَسَّ كل ما له ، فإنه فى وجهك يجدّف عليك(أيوب ١ : ٩ - ١١) .

ينبغى علينا اذاً أن نزيل أى شبهة لوجود أهداف أنانية للعبادة ، حتى ولو كانت آثارها السيكلوجية مفيدة لنا باعتبارها رياضة علاجية . ينبغى أن يكون الله ذاته هو مركز العبادة ، ويكون هدف العبادة تمجيد الله . وكيف يكون تمجيد الله ؟ إننا ندرك من دراستنا للكتاب المقدس أن تمجيد الله يتم بتقديس الإنسان .

كيف يتم هذا التقديس اذاً ؟ . إن العبادة سواء فى جماعة المؤمنين أو فى التّعبد الفردى الشخصى هى نوع من التدريب ، ويمكن أن نطلق عليها «الرياضة الروحية» . وفي اللغة الانجليزية تعبر كلمة «Discipline» عن هذا المعنى ، والمقصود هو التعلم عن طريق الممارسة .

نحن نعلم من الخبرة أن التغييرات الهامة فى حياة الانسان وشخصيته لا تحدث فجأة ، ولكنها تأتى تدريجياً وتستغرق وقتاً – وكلما كانت التغييرات جوهرية وأساسية ، احتاجت الى وقت أطول . والحياة المسيحية بمطاليبها الطموحة مثل عطاء الذات بالمحبة ، والنمو الدائم فى شَبَه المسيح ، ليست أمراً سهلًا على من يبدأون السير فيها . ومن اختبارات المؤمنين نعرف أن من قطعوا شوطا فى الحياة المسيحية – حياة القداسة والنمو الى شبه المسيح – احتاجوا الى زمن طويل . وكلما تقدمت بهم الأيام والاختبارات ، شعروا بمزيد من الضعف والحاجة . (أرجو ملاحظة أن التعبير « النمو الى شبه المسيح » يختلف عن التعبير « التشبه بالمسيح » لأن هذا التعبير الأخير خطابىّ غالبا بدون مضمون عميق ، بينما النمو عملية لها أبعاد وأعماق) .

صحيح أننا نسمع عما يسمّى «التجديد فى لحظة» انما ينبغى أن نلاحظ حقيقتين :-

الأولى : أن بذرة هذا التغيير قد تكون قد وجدت فى نفوس هؤلاء الاشخاص منذ فترة من الزمن ، مثل تجديد بولس الذى سبقته رؤيته رجم استفانوس ، وشعوره بالقلق وعدم الراحة رغم أنه كان يوفى مطاليب الناموس بعناية وتدقيق ، ويغالى في اضطهاد المسيحيين ظنا منه أنه يؤدى خدمة لله .

والثانية هى أن الذى يحدث إنما هو تغيير فى الاتجاه ، وحكم شرعى من الله بالتبرير ، وهذه إنما هى مجرد بداية الخلاص ، بينما عملية التقديس وهى استمرار للخلاص تستمر طيلة حياة المؤمن .

إذاً فلا يوجد طريق قصير مختصر ينتقل الانسان به فى لحظة بين الايمان بالمسيح وبين تطبيق الحياة المسيحية بالمحبة . إن الطريق بين الايمان والحياة طريق ملىء بالعقبات والصعوبات . فهناك الشهوات الثائرة والانفعالات المتمردة التى تحتاج الى ضبط ، والعادات التى تأصلت فى الانسان زمنا طويلًا وهكذا . وعلى المسيحى أن يتخطى هذه العقبات والمعطلات وينتصر عليها فى طريق طويل حتى تتملكه أبعاد محبة الله فى طولها وعرضها وعمقها .

إن العبادة – الجماعية والفردية – هى الطريق الذى يسلكه الانسان

ليصل الى هذا الهدف . فهى الخيط الذى يربط بين العقيدة والحياة المسيحية ، أو بين الإيمان والأعمال .

رابعاً : نموذج كتابىّ :

ولعله من الملائم أن نختتم كلامنا عن مكان العبادة بين الايمان والأعمال بنموذج كتابى يعتبر من أوائل المرشدين الروحيين فى هذا المجال ، وهو بولس الرسول .

نحن نعرف قصة حياة شاول الطرسوسى قبل التجديد ، وقصة تجديده المفاجىء عندما ظهر له السيد المسيح وهو فى الطريق الى دمشق . ونحن نلاحظ أن أول شيء عمله شاول بعد تجديده ، أنه لم يصعد الى أورشليم الى الرسل الذين قبله ، ولم يبدأ فوراً ارساليته إلى الأمم ، ولكنه ذهب الى الصحراء العربية ، ولم يذهب الى أورشليم ليتعرف ببطرس إلا بعد ثلاث سنوات (غلاطية ١ : ١٥ – ١٨) – ومن المؤكد أن تلك الفترة كانت فترة عبادة وصلاة واعداد روحى استعدادا للمسئولية التى شعر أن الله قد وضعها عليه .

وفى رسالته الأولى إلى اهل كورنثوس يقارن نفسه بالرياضى الذى يركض فى سباق ، فهو يدرّب نفسه لكى يستطيع أن يفوز بالجائزة . «ألستم تعلمون أن الذين يركضون فى الميدان جميعهم يركضون ولكن واحدا يأخذ الجعالة . هكذا اركضوا لكى تنالوا . وكل من يجاهد يضبط نفسه فى كل شيء . أما أولئك فلكى يأخذوا إكليلا يفنى ، وأما

نحن فاكليلا لا يفنى . إذاً أنا أركض هكذا كأنه ليس عن غير يقين . هكذا أضارب كأني لا أضرب الهواء ، بل أقمع جسدى وأستعبده» (اكو ٩ : ٢٤ - ٢٧)

وقد وصف الهدف الذى يسعى اليه فى رسالته لأهل أفسس بالقول :«الى أن ننتهي جمعنا الى وحدانية الايمان ومعرفة ابن الله . الى انسان كامل . الى قياس قامة ملء المسيح» (اف ٤ : ١٣) . وفى الترجمة اليسوعية «الى مقدار قامة ملء المسيح» ، وفى الترجمة العربية الجديدة «الى الانسان الكامل . الى ملء قامة المسيح» .

وفى رسالته الى أهل غلاطيه يقارن الرسول بين أعمال الجسد وثمر الروح ويقول : «وأعمال الجسد ظاهرة التى هى : زنى ، عهارة ، نجاسة ، دعارة ، عبادة الأوثان ، سحر ، عداوة ، خصام ، غيرة ، سخط ، تحزب ، شقاق ، بدعة ، حسد ، قتل ، سكر ، بطر ، وأمثال هذه التى أسبق فأقول لكم عنها كما سبقت فقلت أيضا إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله . وأما ثمر الروح فهو : محبة ، فرح ، سلام ، طول أناة ، لطف ، صلاح ، إيمان ، وداعة ، تعفف» (غل ٥ : ١٩ - ٢٣)

إن أعمالك الجسد هى عوائق الحياة المسيحية ، لكنها تأتى تلقائيا فينا لأن فينا شهوة الجسد ، وهى موجودة فى المجتمع حولنا أيضا . كيف نستطيع ألا نكمّل شهوة الجسد ؟ يقول بولس : «اسلكوا بالروح» (غل ٥ : ١٦) أى أن ندع المجال لروح الله أن يعمل فينا فننتصر على أعمال

الجسد ، وننمو نحو ثمر الروح ، أو ينمو فينا ثمر الروح . إن الأمر ليس مجرد حياة جديدة بالروح القدس ، لكن الأمر يتطلب سلوكا فى الروح «إن كنا نعيش بالروح (أى إن كانت لنا الحياة الجديدة بالروح) فلنسلك أيضا بحسب الروح» (غل ٥ : ٢٥) وفى غلاطية (٦ : ٧ ، ٨) يسترسل ويبين لنا أننا سنحصد ثمراً من نفس نوع البذار التى نزرعها فى حياتنا «فان الذى يزرعه الانسان إياه يحصد أيضا . لأن من يزرع لجسده فمن الجسد يحصد فساداً ، ومن يزرع للروح فمن الروح يحصد حياة أبدية».

إذاً فالعبادة ليست رياضة سيكلوجية ، ولكنها أسلوب فى التوجه الى الله ليعمل عمله السرّى الخلاق فينا ، فتنمو فينا بذرة الحياة المسيحية وتثمر فينا ، فيتمجد الله بنا وفينا ، لأن مشيئته هى قداستنا ؟ وتتحول معتقداتنا الى حياة اذ تتفتح حياتنا للقاء مع الله ، ونتجاوب مع عمل نعمته ، فننمو الى ذاك الذى هو الرأس المسيح .

الفصل الثانى

الله الذى نعبده

يروى لنا يوحنا البشير حواراً رائعاً بين السيد المسيح وامرأة من السامرة ، وفى جانب من هذا الحوار تظهر لنا حقيقة عبادة الله متميزة عن المفاهيم البشرية الخاطئة الناتجة عن معرفة غير ناضجة بشخصية الإله الذى نعبده .

فقد أوقف السيد المسيح تلك المرأة السامرية وجها لوجه أمام ذنوبها عندما ذكر لها أنه كان لها خمسة أزواج ، وأن الذى معها فى ذلك الوقت لم يكن زوجاً لها ... وبحسب الطبيعة البشرية التى تحاول التهرب من مواجهة النفس بالالتجاء الى الجدل العقائدى ، قالت المرأة للمسيح :

«أرى أنك نبي» وما دام كذلك فقد أرادت أن تدخل معه فى جدل حول مكان العبادة المقبولة ، وكان هناك خلاف فى هذا الموضوع بين اليهود والسامريين . قالت له : «آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل وأنتم تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يُسجد فيه» (يو ٤ : ٢٠) . كان اليهود يرون أن السجود يكون فى الهيكل المقام فى أورشليم ؛ أما السامريون فلم يكونوا يقبلون من العهد القديم سوى الأسفار الخمسة ، وحسب رواية التوراة عندهم كانت وصية الله أن يبنوا مذبحا للرب فى جبل جرزيم . فى تثنية (٢٧ : ٤ ،٥) «حين تعبرون الأردن تقيمون هذه الحجارة التى أنا أوصيكم بها اليوم فى جبل عيبال (أو جرزيم فى النسخة السامرية) وتكلسها بالكِلْس ، وتبنى هناك مذبحاً للرب الهك ... «ويقول السامريون إن المذبح الذى بناه يشوع والمشار اليه فى يشوع (٨ : ٣٠) كان فى جبل جرزيم وليس فى جبل عيبال ؛ وبخاصة أن جبل جرزيم هو الذى وقف عليه من باركوا الشعب ، بينما وقف من لعنوا المخالفين للشريعة على جبل عيبال (تث ٢٧ : ١٢ ، ١٣) هذا بالاضافة الى أن يشوع بعد ما اختار الشعب عبادة الله نصب حجرا كبيرا فى شكيم (وهى فى السامرة) ليكون شاهدا على الشعب (يش ٢٤ : ٢٥ - ٢٧) لهذا بنى السامريون هيكلا فى جبل جرزيم كان منافسا لهيكل أورشليم . ومع أن ذلك الهيكل كان قد هدمه أحد الغزاة فى عام ١٢٨ ق.م. إلا أن السامريين ظلوا على اعتقادهم بأن عبادة الرب يجب أن تكون فى السامرة لا فى أورشليم .

وفى اجابة السيد المسيح على المرأة السامرية نجد توضيحا كاملا للعبادة الحقيقية اذ قال : «يا امرأة صدقينى إنه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للآب . أنتم تسجدون لما لستم تعلمون . أما نحن فنسجد لما نعلم لأن الخلاص هو من اليهود . ولكن تأتى ساعة وهى الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق ، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له . الله روح ، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا» (يو ٤ : ٢١ – ٢٤) .

وربما لا توجد عبارة تحمل فى ايجازها قدراً غزيرا من المعانى كهذه العبارة ، فإن هذا الجواب يشير الى تطور العبادة من العهد القديم الى العهد الجديد ؛ كما يظهر أن المعرفة الحقيقية لله ضرورية لتكون العبادة صحيحة ؛ والى أن العبادة لله هى على أساس ذبيحة المسيح المخلّص ، وأننا نتقدم الى الله باعتباره الآب ، وأن الله روح وعبادته يجب أن تكون روحية متحررة من الشكلية والمظهرية والروتينية ، وأن الله هو الذى يعلن عن ذاته ويدعو الناس الى عبادته . ونحن لا نطمع فى هذه الدراسة أن نقدم أكثر من شرح موجز لهذه الحقائق . ولقد حرص السيد المسيح أن يوضح للمرأة السامرية أن الله روح ؛ لأن فكرة الانسان عن الله تؤثر فى أسلوب عبادته ... لذلك كان من الأهمية بمكان أن نتعرف على شخصية هذا الإله الذى نتعبد له . كيف نعرف شخصية هذا الإله ؟ وكيف تؤثر نظرتنا الى الله فى أسلوب عبادتنا ؟

أولًا : كيف نعرف الله ؟

معرفة الله ، أو التعرّف به ، هدف يسعى إليه المتعبد . والمسيحى يدخل الحياة الأبدية أو ينالها كنوع متميز من الحياة يبدؤه هنا على الأرض عندما يعرف الله فى المسيح . «وهذه هى الحياة الأبدية ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته» (يو ١٧ : ٣) . وما يطلبه الله من الإنسان ليس المحرقات والذبائح ، بل معرفة الله وما يترتب عليها ، «انى أريد رحمةً لا ذبيحة ، ومعرفة الله أكثر من محرقات» (هوشع ٦ : ٦) فكيف نعرف الله الذى نعبده ؟

فى أصول الايمان تعريف لله بأنه : «روح غير محدود فى ذاته ومن ذاته ، فى وجوده ومجده وغبطته وكماله ، كاف للكلّ ، سرمدى ، غير متغيّر ، غير مُدْرَك ، حاضر فى كل مكان ، قادر على كل شىء ، عالم بكل شىء ، حكيم ، قدوس ، عادل ، رحيم ، رؤوف ، بطىء الغضب وكثير الاحسان والمراحم» .

لكن التعاريف النظرية للأمور المعنوية الخالصة المجرّدة ، تبدو وكأنها لا تمسّ حياة الانسان ، أو لم تنبع من خبرة وتجربة . ونحن نتساءل : كيف توصّل من كتبوا هذا التعريف الى هذه الحقائق عن الله ؟

هذا يدعونا الى التأمل قليلًا فى أنواع المعرفة التى يتوصل الانسان اليها . وهناك نوعان من المعرفة : المعرفة الموضوعية ، والمعرفة الذاتية .

فالمعرفة الموضوعية (Objective) تتعلق بالأشياء الخارجة عنا ، كمعرفة المواد المختلفة وخواصها وتفاعلاتها وهكذا . والمعرفة الذاتية (Subjective) هى التى ندركها من خلال نظرتنا الذاتية واحساساتنا الداخلية ، أى أننا نُضَمِّن فيها جزءا من ذواتنا . فالباحث فى الفيزياء أو الكيمياء أو علم النبات أو الحيوان يتعرف على المواد والغازات والنباتات والحيوانات معرفة موضوعية ، ويخضعها لتجاربه المعملية لأنها موضوعات خارجة عن ذاته ؛ بينما معرفته لنفسه أو قدراته أو آماله أو أشواقه تعتبر معرفة ذاتية ؛ ومعرفته للأشخاص الذين يتعامل معهم وطبائعهم وفضائلهم فيها مزيج من الموضوعية والذاتية ، لأنه إنما يحكم على طباعهم وشخصياتهم من خلال ما يراه فيهم وما يسمعه منهم ممتزجا بتأثير ذلك فى نفسه هو .

ويحاول العلماء والمنصفون أن يكونوا موضوعيين قدر الاستطاعة فى حكمهم على الأمور ، لأن النظرة الذاتية معرّضة للتحيز والخطأ .

فيا ترى هل معرفتنا لله موضوعية أم ذاتية ؟ الحقيقة ، إننا لا نستطيع أن نعتبر معرفتنا لله موضوعية أو ذاتية ؛ لأن الله تعالى يتسامى ويسبق كل ذات وكل موضوع .. إنه هو مصدر كل ذات ومصدر كل معرفة «لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد» ، فلا نستطيع إذاً أن ننظر الى الله نظرة موضوعية ونتعامل معه كما يتعامل عالمُ النبات مع زهرة مثلًا ، اذ حاشا لله أن يكون «موضوعاً» خاضعا لدراسة الإنسان . وفى نفس الوقت لا يمكن أن نتعرف عليه ذاتياً لأنه تعالى متسام ومتعال فوق البشر ، وفوق

كل ذات وفكر وخيال وتصوّر .

إننا نبهر من مجده وجلاله عندما نتطلع الى السموات والفلك والنجوم ... لكن كل هذه تعتبر «عمل أصابعه» على حد تعبير المرنم ... وكل ما نستطيع أن نقوله بعد ذلك ليس «من هو الله» ؟ بل نتساءل «من هو الانسان حتى تذكره ؟» (مز ٨) ونحن نكتشف كل يوم عجائب من خليقته الأرضية وقوانين الطبيعة التى أوجدها سواء فى جسم الانسان وعقله أو فى سائر الكائنات ، ولكن كلّ هذه الأشياء قَبَسٌ من قدرته يدرسها العلماء دراسة موضوعية ، ولكنه هو تعالى وراء وقبل وبعد كل موضوع ، فلا يمكن أن نعتبر الله تعالى موضوعا ندرسه .

وفى نفس الوقت نختبر ، ويختبر الناس أعمال عنايته العجيبة فى حياتهم ، ويقرأون عنها فى التاريخ المقدس ، ويتأثرون بجوده وعدله وصلاحه وبره وحبه ، ويتعجبون أو يتساءلون عن حكمته وتدبيره ، ويترك هذا كلُه أثراً فى نفوسهم يقرّب الى عقولهم ونفوسهم فكرة الله فى خيالهم وتصوّرهم ؛ لكننا لا نستطيع أن نقول إن تلك الفكرة أو الصورة هى الله ...

هذا جانب ...

ثم لنأخذ جانبا آخر عن مدى المعرفة . فأن معرفة شيء معين أو شخص معيّن ، يتوقف مداها ، وعمقها ، وشمولها ، على حقيقة كل طرف من الطرفين : طالب المعرفة وموضوع المعرفة . فتعرُّف الطفل على قطعة حلوى مثلًا يختلف عن تعرُّف العالم الكميائى لقطعة الحلوى نفسها ،

فالأول (الطفل) يهتم بشكلها ولونها ومذاقها ، بينما الثانى (العالم الكيميائى) يضيف الى ذلك تركيبها الكيميائى ، وخواصها ، وقيمتها الغذائية الى غير ذلك .

فاذا انتقلنا الى معرفة الأشخاص وجدنا الأمر أكثر تعقيداً من تعرفنا على الأشياء أو النباتات أو الحيوانات ، لأن معرفتنا الحقيقية للأشخاص تقتضى وجود علاقة معهم ، وتعاملات متنوعة ، وكلما زادت علاقتنا قرباً ، وتنوعت اختباراتنا معهم ، وعرفنا سلوكهم عن قرب ، وتصرفاتهم فى مختلف المواقف ، زادت معرفتنا لهم . ومن الشائع فى الحياة العملية أن يكتشف الانسان بعد فترة من الزمن أن معرفته لبعض الاشخاص لم تكن صحيحة فى الماضى بسبب ما يكتشفه عند تعميق العلاقة معهم . ونزيد على ذلك أن تعرفنا على الشخصيات التى نحس أنها أسمى منا فى المركز أو المقام أو العلم أو السلطان ، يختلف عن أسلوب معرفتنا لأصدقائنا وأقاربنا . فهناك بعض الشخصيات التى يصعب علينا أن نقترب اليها لنتعرف عليها ، وننتظر بلهفة الفرصة التى تسمح فيها هذه الشخصيات لنا أن نقترب منها . وبعض الناس لا نستطيع أن نتعرف عليهم إلا إذا اتخذوا هم جانب المبادرة واقتربوا منا .

فاذا كانت هذه هى صورة علاقتنا بالأشخاص الذين يشاركوننا ونشاركهم صفة الانسانية ، فكم يكون الحال إذاً عندما نريد أن نتعرف على شخصية الله المتسامى عن البشر والمنزّه عن كل ما هو محسوس ومحدود ؟!! ...

يتضح لنا إذاً أننا لا نستطيع أن نعرف عن الله إلا ما يكشفه هو عن ذاته . ونحن نعرفه بقدر ما يسمح لنا هو أن نعرف عنه ، وبقدر ما تستطيع عقولنا أن تدرك من اعلاناته . وعلى هذا الأساس فإن معرفتنا لله لا يمكن أن تدخل فى نطاق المعارف البشرية كالعلوم الطبيعية أو النظريات العقلية ... بل هى اختبار وتعامل وتلاقٍ بين الله والانسان . هى معرفة مصحوبة بالوقار والخشوع والشكر . فمعرفة الله لا تنفصل عن عبادته ؛ ففى العبادة يقترب الينا الله لنختبره دون أن نستطيع القول إننا قد عرفناه ؛ ذلك لأننا لو ظننا أننا قد عرفنا الله واستوعبناه فاننا نكون قد أنزلنا الله تعالى إلى درجة الأصنام . فلا نستطيع أن نقول عنه إنه حقيقة موضوعية أى **هناك** ،لأننا بذلك نكون قد أبعدناه عنا ونظرنا الى أنفسنا كمستقلين عن الله . ولا نستطيع أن نقول عنه إنه حقيقة ذاتية أى **هنا** ، أى أنه صورة مثالية مستقرة فى كياننا ونفوسنا ، لأننا نكون بذلك قد حددناه بتصورنا ... وهو فى الواقع يسبق ويتعدى فكرة هنا أو هناك ، لأنه يتعدى الزمن والمكان .

وأخشى ان أجرؤ وأقول – لكن لا بدَّ أن أقول – إنه نوع من التجديف أن نظن أننا مهما بلغ بنا العلم نستطيع أن نحيط بالله . الواقع إنه هو يحيط بنا ونحن لا نستطيع أن نعرفه لكننا نُعْرَف منه ، ولا نستطيع أن نمتلكه لكنه يمتلكنا ، فنتفتّح نحن لوجوده غير المحدود فينا وفوقنا وحولنا ولا نستطيع فى حضرته إلا أن نصمت فى انبهار وحب وتمجيد ...

هذه المواجهة بين الانسان وهذا الاله الذى يعرف الانسان ويفحصه لأنه نور ونار ، ويكشف أعماقه في شفافية العالم بخفّيات القلب ، هى جوهر العبادة – ولعلنا الآن ندرك بكيفية أكثر وضوحا التعريف الذى أشرنا اليه من قبل عن العبادة فهى :

«أن يفقد الانسان ذاته فى أعماق لا يُسبَر غورها ، وأن يغطس فيما لا ينضب ، وأن يجد السلام فى كيان لا يقبل الفناء ، وأن يُستغرَق فى اتساع غير محدود ، وأن يخضع ذاته لتمحيص النار والشفافية ، وأن يقدّم أعمق ما لديه لذاك الذى لا حدود لأعماقه» .

من هذا المنطلق نستطيع أن نرى سذاجة من يحاولون أن يقيّدوا أسلوب عبادة الله بشكل محدد ، أو بطقوس معينة ، أو بمكان معين ، لأن كل هذه القيود إنما تحدّ من حرية الروح الذى نتقدم به أمام ذلك الإله غير المحدود مالىء السموات والأرض . وقد تساعدنا بعض الأساليب على إخضاع نفوسنا له ، والخشوع قدامه ، وقد تعاوننا بعض صلوات واختبارات القديسين أن ندرك شيئاً من أعماق اختباراتنا له ؛ إنما ينبغى أن نحرص دائماً على أن يكون تقدمنا إليه تعبيرا صادقا عن عقيدتنا ومشاعرنا ، وفى نفس الوقت نحرص على تنمية روح الخشوع والإنبهار فى نفوسنا ، معترفين بأنه يعرفنا أكثر مما نعرفه ، ويكشف أعماقنا التى نحاول أن نخفيها أو نسترها ، فنطلب معونته إذا تعرضنا للفتور أو المظهرية أو الروتينية ، وإذ ذاك تكون عبادتنا له طريقا إلى مزيد من فحص الذات قدامه ، فتكون صلواتنا كصلاة المرنم فى مزمور ١٣٩

«يارب قد اختبرتني وعرفتني
أنت عرفت جلوسى وقيامي
فهمتَ فكري من بعيد
مسلكي ومربضي ذرّيت ، وكلَّ طرقي عرفت
لأنه ليس كلمة في لساني إلا وأنت يارب عرفتها كلَّها من خلف ومن قدام حاصرتني وجعلت عليَّ يدك . عجينة هذه المعرفة فوقي إرتفعت لاأستطيعها
أين أذهب من روحك
ومن وجهك أين أهرب .

اختبرني يا الله واعرف قلبي
امتحني واعرف أفكاري
وأنظر إن كان فيَّ طريق باطل
وإهدني طريقاً أبدياً .

ثانياً : الصعوبــة اللغويــة

وصلنا فيما سبق إلى حقيقة عدم إمكانية الإنسان أن يطبق مناهج المعرفة التي يستخدمها في مختلف العلوم لكي يتعرف على الله تعالى؛ فالله هو الذي يدنو من الإنسان ويسمح له أن يعرف ما يريده هو أن يعرفه عنه بالإعلان فى الكتاب المقدس ، وهو تاريخ تعامل الله مع الناس ؛ وفى الاختبار الإنساني ؛ وأن الإنسان يُعرَف من الله أكثر مما يعرف الله .

لكن لا ينكر أحد أن الإنسان عن طريق هذا الاختبار يدرك شيئاً عن الله ، وإن كان لا يستوعب الله في كمالاته . ونحن كبشر نعيش في عالم المحسوسات ، لنا عقول تدرك وتتأمل فيما ندركه ، ولنا علاقات اجتماعية ، ونحن نحتاج إلى وسيلة ما للتعبير عما ندركه وعما نختبره لكى ننقله إلى الغير ، ونقيّمه ، ونقارنه بغيره من الاختبارات . وهنا نواجه صعوبة تكمن في أنه ليست لنا وسيلة للتعبير سوى اللغة التي ننطق بها . هذه اللغة لا تستطيع أن تنقل وتعبّر عن الإعلانات والاختبارات إلا من خلال تعبيرات وصور لغوية وفكرية مستعارة من اختبارات الناس العادية موضوعية كانت أم ذاتية . ونحن نلاحظ هذا العجز في اللغة عندما نحاول أن نعبّر حتى عن احساساتنا النفسية فيقول الواحد « قفز قلبي من الفرح » أو « انشرح صدري » مع أن القلب لم يتحرك من مكانه ، والصدر لم ينفتح لينشرح ... وهكذا ... وبالأكثر جداً يكون العجز فى التعبير عن الاختبارات الروحية والاعلانات الالهية . فقد تكون هناك آثار جسدية للانفعالات النفسية ، تُستعار بكيفية ما للتعبير عنها لغويا . وأما الحديث عن الله المتسامي فوق كل محسوس و مُدْرَك ، فاللغة أعجز من أن تعبّر عنه . وهذه هى الصعوبة التى يواجهها علم اللاهوت عندما يحاول أن يعبّر بكلمات بشرية قاصرة عن حقائق روحية وإعلانات إلهية . من هنا يحدث الخطأ عن كثيرين من البشر إذا فهموا هذه الكلمات و الألفاظ بحسب ما تدل عليه في الاختبارات الانسانية . ولعل هذا هو السبب الذي جعل بعض الناس يتصورون الله في صورة بشرية . صحيح أنهم ينظرون إلى تلك الصورة فى كمالات وسموّ ، لكنها

مع ذلك صورة بشرية . واللغة وكاتبوها معذورون لأنه لا توجد وسيلة للتعبير سواها . ومن هنا نجد اضطرار الوحى المنقول والمكتوب إلى أن يشير إلى «ذراع الرب» أو «يمين الرب» عند الاشارة إلى قدرة الله ؛ و «كرسي الرب» و «عرش الله» عند الاشارة إلى ملكه وسلطانه . والمقصود هنا يختلف حتى عن المفاهيم البشرية للقدرة وللملك . ففكرة القدرة قد تحمل إلينا صورة بشرية أو مادية ، بينما قدرة الله تختلف عن أية قدرة نفكر فيها . وفكرة الملك أو السلطان يفهمها الناس من خلال اختبارهم للملوك والسلاطين الأرضيين ، بينما ملك الله وسلطانه يختلف كثيرا عن الملك في المفهوم الأرضي .

وكثيرون يتساءلون مثلا عن «غضب الله» وهل ينفعل الله كسائر البشر ؟ والانفعال مظهر ضعف وفيه تغيير في كيميائية وافرازات الغدد ؛ فكيف يقال عن الله إنه يغضب أو يندم أو يتأسف في قلبه ، وهو الذي «ليس عنده تغيير ولا ظل دوران» ؟ والواقع أن كل هذه التعبيرات إنما يقصد بها عدم رضى الله على سلوك الإنسان ، أو أن هذا السلوك لا يتفق مع انتظارات الله .

إذا تنبهنا إلى هذه الحقيقة وهى قصور اللغة — ونحن ندرس اختبارات الآباء والقديسين لله كما يصفها الكتاب المقدس استطعنا أن نتجنب الكثير من التساؤلات الساذجة ، وأن نتفهم ولو جزئياً ما يذكره الكتاب عن رؤية وجه الله ، ومجد الرب ، وسماع صوت الرب ، وكلام الرب وغير ذلك من الاختبارات . إن تلك الاختبارات روحية وشخصية لا

يمكن وصفها ، ولكن يُعبَّر عنها باللغة البشرية المستمدة من اختباراتنا للمحسوسات ... بينما تلك الاختبارات تختلف تماما عن رؤيتنا لوجوه الناس ، أو الأمجاد البشرية ، أو الأصوات الإنسانية . ولا ننسى أن الله يعمل في التاريخ ، وفى الطبيعة ، ويستخدم كل خليقته المادية ، وكل أحداث التاريخ لكي يعلن عن ذاته ويمجد ذاته .

ثالثا : نظرات متدرّجة إلى الله

إننا كلما نزّهنا الله عن المفاهيم البشرية والمادية وتدربنا أن ننظر إليه تعالى نظرة تختلف عمّن سواه ، وأدركنا حقيقة نفوسنا كبشر نستمد حياتنا وكياننا ووجودنا منه ، استطعنا أن نكون في روح العبادة الحقيقية ؛ لأن الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا . و نظرات الناس إلى الله وفكرتهم عنه تعالى تتدّرج بعداً وقربا من هذا المفهوم ، وبقدر اقترابها من هذا المفهوم تكون ناضجة وأكثر تمجيداً لله تعالى .

وفى الكتاب المقدس أمثلة لهذه النظرات المختلفة إلى الله في اختبارات المؤمنين ، ومن لطف الله أنه يتقبل من البشر نظراتهم المختلفة اليه ، حتى ولو كانت غير ناضجة ، لأنه كأب يتحمل طفولة الجنس البشرى ويدعوه بالتعامل معه إلى النضوج ؛ وهذه مجردِ عيّنات من تدرج النظرة إلى الله .

[١] نظرة المبتدئين

نحن نحيا في عالم ماديّ ، لكننا نتطلع إلى الروحيات آمالنا أعظم من قدراتنا ، وضعفاتنا تحدّ من تطلعاتنا . نحن نريد أن ننتصر ولا ننهزم ، نريد أن نُشْفى ولا نمرض ، نريد أن ننجح ولا نفشل ، لذلك يهمنا أن نربط أنفسنا بقوة أعظم منا لكى ترفعنا وتنصرنا وتقوينا وتحقق لنا آمالنا .

هنا يظهر مكان الله في حياتنا . أليس هو القوة العظيمة الغير المحدودة ؟ فكم يكون رائعاً لو ربطنا أنفسنا بهذا الإله . ونحن نزداد بهجة وغبطة عندما نتعلم عن محبة هذا الإله لنا ، ورعايته لأمورنا ، واتخاذه منا أبناء له ، يحوطنا بالرعاية ويغمرنا بالحنان والحبّ . فنحن نؤمن به ، وفي نفس الوقت نتجاوب مع محبته فيكون لنا إلهاً نفتخر به ، ونقارن بين أنفسنا وبين غيرنا ، فنبتهج بالهنا الذي نتصور أننا نمتلكه ... بل نعتقد أحيانا أنه متحيّز لنا للعلاقة الخاصة التي تربطنا به .

وقديما كان بنواسرائيل يعتقدون هذا الاعتقاد .
وفي بركة موسى للأسباط يقول :

«ليس مثل الله يا يشورون (اسرائيل المستقيم)
يركب السماء في معونتك
والغمام في عظمته
الإله القديم ملجأ ، والأذرع الأبدية من تحت

فطرد من قدامك العدوّ
وقال أهلِكْ
فيسكن اسرائيل آمنا وحده
تكون عين يعقوب إلى أرض حنطة وخمر
وسماؤه تقطر ندىً
طوباك يا اسرائيل . من مثلك يا شعبا منصورا بالرب ترس عونك وسيف عظمتك . فيتذلل لك أعداؤك وأنت تطأ مرتفعاتهم» .

(تثنية ٣٣ : ٢٦ – ٢٩)

وقد كان هذا الاعتقاد صحيحا من جانب وهو جانب الله الذي اختار لنفسه شعبا ليحقق به قصدا معيّنا لمجده ، ورسالة معينة لكل العالم ... ولكن شعب إسرائيل نظر إلى الأمر من ناحيته هو ، فافتخر بعلاقة الله الخاصة به ، ولم يفكر في الرسالة التي يطلبها الله منه ، بل بالعكس تصوّر أنه يسخّر ويستخدم الله لتحقيق أغراضه هو الذاتية الأنانية .

إن هذه النظرة القاصرة تفكر في الله من الزاوية الإنسانية وبالمقاييس الإنسانية . صحيح أنها تنظر إلى الله باعتبار كبير ، ولكن أصحابها – ربما دون أن يشعروا – يريدون أن يخضعوا الله لما يضعونه هم من مقاييس في العدالة أو الثواب أو العقاب ، أو هم يرسمون لله خطة العمل ويطلبون من الله أن ينفذّها بقوته واقتداره لكي يمجّد ذاته حسب الهدف الذي يتصورونه هم . ألا يحدث أحيانا أن يقول الناس أو يفكرون في

نفوسهم بمثل هذه الأقوال : «المفروض أن الله يمجد ذاته ويعمل كذا وكذا في هذا الموقف أو ذاك» أو «ياليت الله يعمل كذا وكذا لتمجيد اسمه» أو «لماذا لم يعمل الله كذا وكذا ليسكت أعداءه ومقاومي رسالته ؟» وذلك كله لأنهم قد كوّنوا صورة معيّنة في عقولهم عن الله وينتظرون من الله أن يتصرف حسب توقعاتهم . إن أصحاب هذه النظرة يبتهجون ويهللون فرحاً عندما يحقق الله لهم هدفا ونصراً حسب توقعاتهم أو فوق ما كانوا يتوقعون ، ويهتفون مع مريم وموسى وهرون بعد معجزة عبور البحر الأحمر وغرق جيش فرعون :

«الرب قوّتي ونشيدي وقد صار خلاصي هذا إلهي
فأرفعه . إله إبي فأمجده . الفرس وراكبه طرحهما في
البحر . يا الله من مثلك بين الآلهة معتزا في القداسة .
مخوفا بالتسابيح ، صانعا عجائب» .

(خروج ١٥)

لكن المشكلة تظهر عندما يحدث العكس ، عندما لا تتحقق آمالنا التي وضعناها في الله . إننا نحزن لأننا نتصور أن الله قد هُزِم ، لأن الأحداث لم تجرِ بحسب توقعاتنا منه . هنا نتعرض للانهيار . هذه هي نظرة الأطفال الذين يهللون ويصفّقون عند كل عمل رائع يجريه الله ، متصورين أنهم يشجّعون البطل في جهاده ... وكأنهم في أعماق نفوسهم يتصورونه واحدا منهم لكنه أقوى وأكبر . إنه مثالهم الأعلى الذي يريدونه ألا يخيب أو ينهزم أبداً . لكن عندما تكون لنا هذه النظرة ونجتاز في ألم لا ندري له سببا ولا ندرك له نهاية ؛ أو عندما نحيا في موقف

متأزم لانفهمه ، فحتى لو تماسك الانسان وتذرع بالصبر من واقع تسليمه ، لكنه يتمزق ويهتز من الداخل .

إننا لو فكرنا في كثير من تعبيراتنا في الصلاة ، ولو راجعنا كلمات ترانيم كثيرة مما نرّتله ، فغالبا سنكتشف أن نظرتنا إلى الله ما زالت تلك النظرة الأنانية الذاتية ، نظرة المبتدئين أو نظرة الأطفال الذين يفتخرون بقوة وغنى أبيهم ، ويتصورون أن الأب موجود في الدنيا لمجرد إرضاء هذا الابن ... وقد يكون هذا صحيحا في العلاقات الإنسانية ، لكن الله أعظم من ذلك .

[١] نظرة المفكريـــن المتأمليـــن

عندما يتخطى الإنسان الطفولة ، يكتشف أنه جزء صغير من عالم كبير ، وأنه ليس مركز الوجود ، وأن هناك أهدافا أكبر لوجوده أكثر من مجرد تسخير كل شيء لراحته الشخصية . وعندما يفكر في الكون ... والسماوات ، والنجوم ، والتاريخ بأحداثه ، تتجلى له حقيقة أكبر عند الله . وعندما يفكر في الخير والشرّ ، في الشريعة الأخلاقية المغروسة في قلوب البشر ، يدرك أن الله هو مصدرها ، فيفكر في صفات الله وكمالاته ؛ في قدرته ، وحكمته ، وقداسته ، وحقه ، وسلطانه ، فتتغير نظرته العاطفية الأنانية ويعظمّ الرب لأجل ذاته – أى ذات الله – وصفاته . هكذا هتف المرنم : «أيها الرب سيّدنا ما أمجد اسمك فى كل الأرض ، حيث جعلت جلالك فوق السموات ... إذا أرى سماواتك عمل أصابعك القمر والنجوم التي كوّنتها ، فمن هو

الإنسان حتى تذكره ، وابن آدم حتى تفتقده» . (مز ٨) عندئذ يشعر أن هذا الإله يمتلكه ويمتلك غيره ، وأنه مجرد جزء من هذا الوجود ، وأن الله سيد التاريخ كلِّه . هنا يتأكد من وحدانية الله ليس فقط من ناحية العدد ، بل من ناحية القدرة والنوع والعظمة والسموّ . ونستطيع أن نرى هذه النظرة إذا قرأنا من سفر إشعياء ٤٠ : ١٨ — ٢٦

«فمن تشبّهون الله وأيَّ شبه تعادلون به ... ألا تعلمون . ألا تسمعون . ألم تُخْبَروا من البداءة . ألم تفهموا من أساسات الأرض ... الذي ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن . الذي يجعل العظماء لاشيئاً ويُصيّر قضاة الأرض كالباطل ... فمن تشبهونني فأساويه يقول القدوس . إرفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا من خلق هذه . من الذي يخرج بعدد جندها ، يدعو كلَّها بأسماء» .

هذه النظرة أكثر تقديرا وتمجيدا لله من نظرة الطفولة الأنانية . إنها تنظر إلى الله كذات موضوعية سامية الصفات مطلقة القدرات لكنها تتضمن إمكانية الإنسان الوقوف أمام هذه الذات العلّية لمناقشتها ولو إلى حد ما .

إن أيوب الذي وصف الله بأنه «حكيم القلب وشديد القوّة ... من تصلَّب عليه فسلم . المزحزح الجبال ولا تعلم ... فاعل عظائم لا تُفْحص وعجائب لاتُعد ... إذا خطف فمن يردّه ومن يقول له ماذا تفعل» (أى ٩) أيوب هذا في شدّة آلامه في تجاربه ، تصوّر أنه يستطيع أن يقف أمام الله ، وبالمقاييس البشرية يبرىء ذاته أو يدافع عن نفسه أو

على الأقل يطلب منه أن يفهّمه لماذا سمح له بهذه الآلام فقال :

« من يعطيني أن أجده فآتي إلى كرسيّه . أُحْسِن الدعوى أمامه وأملأ فمي حججاً . فأعرف الأقوال التي بها يجيبني وأفهم ما يقوله لى » .

(أي ٢٣ : ٣ - ٥)

لكن أيوب نفسه عندما نضجت نظرته إلى الله ، اكتشف في النهاية أن كل ما كان ينطق به لم يكن يفهمه ، ولم يكن لائقا بالله فقال :

« قد علمت أنك تستطيع كلَّ شيء ولا يعسر عليك أمر ... ، ولكنى قد نطقت بما لم أفهم . بعجائب فوقي لم أعرفها ... بسمع الأذن قد سمعت عنك ، والآن رأتك عينى . لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد » (أى ٤٢ : ٢ - ٥) .

[٣] نظرة المتعبدين الناضجين

هنا لا نتعلم **عن** الله من كتاب أو فكر عقلى ، لكننا نتعلم **من** الله في شركة ولقاء وتعامل . ولنلاحظ أن أيوب لم يعترف باكتشافه عن الله وبرؤية الله بعد أن أعلن الله له براءته وردَّ سبيه وأعاد إليه أمواله وصحته ورزقه بالبنين والبنات . كلا ... لقد قال ذلك وهو ما زال فقيرا مريضا معدما عاجزاً ومعزولًا ، ولم يكن يعرف أو يتوقع أنه سينال شفاء أو تعويضا . إذاً كيف نال أيوب هذه المعرفة والاختبار الناضج ؟ لقد حدث ذلك عندما اكتشف أيوب بالخبرة والاعلان أنه مجرد إنسان ، وأن الله أعظم من تصوّره ، ومختلف عن كل ما يخطر على باله . عندما

اكتشف أنه لا يستطيع أبداً أن يسأل الله ، ويوقف الله في موقف الذي يجيب على تساؤلات الإنسان الذي يسأل بمقاييسه البشرية . عندما اكتشف أن الله يفوق كل تصوراته ولا يمكن أن يخضعه لمنطقه البشرى وأسلوبه العقلي في التفكير . لقد وجّه أيوب في جهالته إلى الله أسئلة حائرة في ذهنه ، وتكلم الله من العاصفة ، لكنه لم يُجِب على أسئلة أيوب ، إنما وجَّه إلى أيوب أسئلة . ومما قاله الله لأيوب :- «من هذا الذي يُظْلِم القضاء بكلام بلا معرفة ... اُشدد الآن حقويك كرجل . فإني أسألك فتعلمني ... أين كنتَ حين أسستُ الأرض . أخبر إن كان عندك فهم . من وضع قياسها ؟ لأنك تعلم» ... وهكذا توالت أسئلة الله لأيوب . هنا اكتشف أيوب بالاختبارأن الله هو الذي يسأل ولا يسأله أحد . اكتشف أنه مجرد مخلوق لا يستطيع أن يجادل الله ويتعامل معه معاملة الند للند ، فقال : «ها أنا حقير فماذا أجاوبك» . هنا أدرك أن الله يستطيع كلَّ شيء . يستطيع أن يسود على الإنسان الذي خلقه . وأنه وإن كان للإنسان عقل وفهم ، وإن كان الإنسان قد نال شيئاً وصار تاج الخليقة ، فكل هذا مجرد نعمة من القدير ، لذلك هتف قائلًا : «قد علمت أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر فمن ذا الذي يخفى القضاء بلا معرفة . ولكنى قد نطقت بما لم أفهم . بعجائب فوقي لم أعرفها . اسمع الآن وأنا أتكلم . أسألك فتعلمنى . بسمع الأذن قد سمعت عنك والآن رأتك عيني . لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد» .

قال هذا لا لأنه رأى قدرة الله فى أحداث التاريخ ، مع أن الله سيد التاريخ ؛ ولا لأنه رأى معجزات الخلاص والنجاة ، مع أن الرب رئيس الخلاص ؛ ولكن لأن الله كشف له ضعفه وعجزه كإنسان ، فأحس بفضل النعمة العجيب . وتواضع في التراب والرماد .

هذه هي بداية التعبد الصحيح ... وقديما سأل ميخا النبى : «بم أتقدم إلى الرب وأنحنى للاله العلى ؟» وكان الجواب ليس محرقات ولا ذبائح بل «قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح . وماذا يطلبه منك الرب إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك» .

إن السلوك بالتواضع مع الله يختلف عن التواضع مع البشر ، والفرق بين النوعين هو الفرق بين الإنسان والإله . فأنت تقترب إلى أخيك فى الإنسانية وأنت تعتقد أن عندك شيء ، لكنك تتنازل عنه في تواضعك . لكن أمام لله ... ماذا عندك ؟
وماذا تستطيع أن تقدم لله ؟ الصلاة – العبادة – العطاء ؟
وهل تزيده بهذه كلها شيئاً ؟ إنك تقول : «ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته لي» ... ثم تسارع وتجد أنك لا تمتلك ما ترده له ، فتهتف : «كأس الخلاص أتناول وباسم الرب أدعو» .

عندما تتبين ذاتك على حقيقتها تدرك معنى الخطية والاعتراف والنعمة . وعندما ترى الله تكتشف ذاتك على حقيقتها ، وتكتشف مجتمعك الإنساني كله فتقول مع إشعياء : «ويل لي إنى هلكت لأني

إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود» (إش ٦) عند ذاك يطهرك الله ، ويكشف لك رسالتك .

عندما يقر الإنسان اختباريا بواقعه ، يستطيع أن يشعر بحاجته إلى الله كإله وسيّد على حياته ، وليس كصورة إنسانية كبيرة وعظيمة – عند ذاك يقبل الخلاص نعمة مجانية لأنه سيدرك أنه لا شيء ، وليس عنده شيء يقدمه لهذا الإله الغني عن كل ممارسات الإنسان وصلواته وتقدماته ... عندئذ تتحول علاقته بالله من نظريات عقلية ، ومحفوظات كتابية ، ومجادلات عقائدية إلى خشوع وتعبد وحب وطاعة . فيستطيع أن يقول فعلا : قد علمت أنك تستطيع كل شيء ... (ليس فقط فى مجال الآيات والمعجزات الباهرة وأحلام البطولة البشرية ، ولكن في مجال أسرار الفداء العجيب الذى يحيرّ الإنسان) . تستطيع أن تملأ الكون من وجودك وفي نفس الوقت تتجسّد في جسد بشرى لترينا حبك وشخصك بصورة مفهومة لنا ... تستطيع وأنت سيُّد الأكوان أن تقبل الهوان والعار في شخص المسيح على الصليب لتعبر لنا عن حبّ يسمو عن ادراك البشر تستطيع أن تجعل من الإنسان العاجز إبناً لك ووارثا للحياة الأبدية وشريكا للطبيعة الإلهية تستطيع أن تمنح ملكوتك لمن لا يستحقون دون أن يفعلوا شيئاً ، عندئذ لن يكون لنا نحن البشر المغمورين بنعمتك ، إلا أن نلهج بالثناء ، ونخبِّر بفضائل من دعانا من الظلمة إلى نوره العجيب ؛

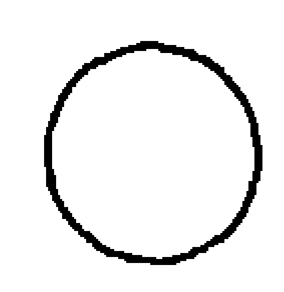
ومن فيض الشكر والحب نطيع ونخشع ونقدم الحياة كلها لك وكلما فكرنا أو تأملنا نظل منبهرين قائلين :

«يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء لأنَّ من عرف فكر الرب ، أو من صار له مشيرا أو من سبق فأعطاه فيكافأ لأن منه وبه وله كل الأشياء .

له المجد إلى الأبد . آمـين .

الفصـــل الثالـث

طريق الاقتراب إلى الله



رأينا كيف أن الله الذى نتعبد له فوق إدراكنا وتصوّرنا ، وأننا لانستطيع أن نعرف عنه سوى ما يريد هو أن يعلنه لنا ، وكيف أننا نقف منبهرين أمام غنى نعمته وحكمته وقدرته وعلمه وكمالاته . وأصبح السؤال الذى يواجهنا هو : ماهو الطريق إلى هذا الإله المتسامى والمتعالى فوق البشر ؟

هنا وقفت البشرية فى تاريخها الطويل تتلمس الطريق ، وتجد نفسها تبحث عن الله . فقد اتفق أغلب الدارسين على أن التديّن دافع فطري

عند الانسان ، إذ يشعر الإنسان بحاسته الفطرية بضرورة الاقتراب إلى ذلك الكائن الغامض العجيب العظيم الذى يملأ إحساسه وخياله ، والذى يسيطر على الكون والحياة ، ويهيمن على العالم والمخلوقات .

فالدين هو محاولة الاقتراب من ذلك الإله . وكلّ دين فى تاريخ البشرية إنما هو وصف لكيفية الاقتراب إلى هذا الإله كيفما تصوره خيال الناس .

وقد كان الإنسان البدائي يرى في ظواهر الطبيعة الباهرة صورة من هذا الإله أو قَبَسًا منه ، فرأى البدائيون الله فى الشمس ، والنار ، والعواصف ، والكواكب ، والمطر ، والخصب ، وغيرها ، وربطوا بين هذه القوى وبين حياتهم فحاولوا استرضاءها حتى لاتغضب منهم فتفنيهم ، وذلك بأشكال من الصلوات والذبائح والقرابين والبخور . وقد كانت كل تلك المعتقدات والطقوس مجرد أضواء باهتة من نور الحق الساطع الذي حاول الإنسان أن يصل إليه بعقله فلم يستطع ، فقد كان العالم في حكمة الله ولم يعرف الله بالحكمة ، لذلك كان الانسان في حاجة إلى إعلان إلهيّ ، ليكتشف الإنسان بهذا الإعلان الحقيقة كاملة ، وقد تم ذلك عندما أعلن الله ذاته مكلّما الآباء بالأنبياء قديما بالوحى المقدس ، ثم فى الإعلان الأكمل فى يسوع المسيح .

على أن الفكر الديني عند جميع البشر يتفق في حقيقة واحدة وهى أن الاقتراب إلى الله ليس أمرًا هينًا أو يسيرا . فقد رأى الناس فى عظمة الكون ، ونقاء الشمس ، وجمال الورود ، وجبروت العواصف ، وقوّة

الصواعق ، وضخامة الجبال ، وهدير المياه ، ولهيب النار ... صوراً من عظمة هذا الإله وهيبته وقداسته ، واكتشف الانسان ضآلته وحقارته فحاول استرضاء هذا الاله بمختلف الأساليب ، ومن هنا جاءت الطقوس المتنوعة للعبادات في مختلف الديانات . لقد استطاع الإنسان بعقله البشرى المحدود أن يدرك بالفطرة أن الإنسان الخاطيء المذنب لا يستطيع أن يقترب إلى الله دون أن يناله عقاب الله وغضبه ، لذلك كان لكل دين طقوس للتطهير ، وغسلات يمارسها العابد قبل أن يتقدم إلى الله بالعبادة والصلاة .

وعندما جاء الإعلان الإلهى في الكتاب المقدس ظهرت قداسة الله بأجلى معانيها ، وكُشِفت خطية الانسان بكل أبعادها . وأسفار الكتاب المقدس تشهد بجلاء عن هذه الحقيقة . فها هو موسى مع بني اسرائيل يرنمون «من مثلك بين الآلهة يارب من مثلك معتزًا في القداسة مخوفا بالتسأميح صانعا عجائب» (خر ١٥ : ١١) وهاهو أليفاز التيماني صديق أيوب يعلن قائلا : «الإنسان أبرّ من الله ، أم الرجل أطهر من خالقه . هوذا عبيده لا يأتمنهم ، وإلى ملائكته ينسب حماقة ، فكم بالحرى سكان بيوت من طين الذين أساسهم فى التراب» (أي ٤)

وهاهوذا إشعياء النبى يرى السيد جالسا على كرسّي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل ، والملائكة خاشعة تغطى وجوهها وأقدامها أمامه ، وتنادى : قدوس قدوس قدوس ربُّ الجنود مجده ملء كل الأرض ، فتهتز أساسات البيت من صوت الصارخ ويمتلىء البيت دخانا ، ويصرخ

إشعياء «ويل لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين ، لأن عينيَّ قد رأتا الملك رب الجنود» (إش ٦)

إن الإنسان الخاطىء المذنب - وهكذا كل إنسان - لا يستطيع أن يقترب إلى الإله القدوس دون أن يتطهر ويتقدس «لأن الهنا نار آكلة» . ومن هنا كانت الطهارة هي باب الاقتراب إلى الله ، وشرط أساسي لعبادة الله والشركة معه ، فبدونها لا صلاة ، ولا عبادة ، ولا شركة ، ولا علاقة بالله على الاطلاق . لذلك قال رسول العبرانيين : «اتبعوا القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب» (عب ١٢ : ١٤)

وسندرس هذا الطريق في ثلاث خطوات :

(١) المدخــل إليه :

كيف يتطهر الانسان ليقترب إلى الله ؟

«من يصعد إلى جبل الرب ، ومن يقوم في موضع قدسه ؟ الطاهر اليدين والنقى القلب» (مز ٢٤:٣،٤)

أغسل يدَّى في النقاوة ، وأطوف بمذبحك يارب» (مز ٢٦) .

إذًا فالنقاوة والطهارة هما المدخل أو باب الاقتراب إلى الله . إن هذا الجواب معروف ولكن كيف ؟

إن الأخلاقيات الإنسانية تصف للإنسان مثاليات الطهارة والنقاوة لكنها لاتستطيع أن توصله إليها . إنها توصى الإنسان أن يكون عفّ

اللسان فلا ينطق بالسوء ، طاهر اليدين فلا يمدهما إلى عمل الشر ، طاهر القدمين فلا يسلك فى طريق الخطية ، طاهر العينين فلا ينظر إلى الباطل . لكن الاختبار أثبت فشل كل محاولة بشرية لذلك ، وحتى من يعلّمون الناس الفضيلة يسقطون فى الرزيلة ... إن الخطية خاطئة جدا ، إذا حوصرت فى مكان ما ، انتقلت إلى آخر ؛ وإذا هوجمت من الخارج ، كمنت فى خبايا النفس لتظهر بطرق متنوعة . ذلك لأنه ما دام القلب نجساً والضمير ملوثا ، فمن فضلة القلب يتكلم الفم وتتصرف اليدان وتتجه الاقدام . وتتلفت العينان . وقديما قال أيوب : «أنا مستذنب فلماذا أتعب عبثا ولو اغتسلت فى الثلج ، ونظفت يدىّ بالإشنان ، فإنك فى النقع تغمسنى حتى تكرهني ثيابى» (أى ٩ : ٢٩ — ٣١)

إن النجاسة نابعة من طبيعة الإنسان الفاسدة وتحتاج إلى شيء آخر غير المحاولات البشرية السطحية للتطهر منها . قرأت مرة إعلانا للدعاية عن أحد العطور المزيلة لرائحة العرق يقول : «النظافة ليست أن تغسل ما يعلق بك ، ولكن القذارة التي تخرج منك هي الأهم» .

لأجل هذا وضع الله نظامه الخاص لتطهير الإنسان. وفي الإعلانات الأولية عن هذا النظام نرى الذبائح فى الشريعة الموسوية ، ونظام الذبائح اليهودية ليس إمتدادًا أو تطويرا لأسلوب الذبائح والتقدمات التى نجدها فى الديانات الأخرى ، لكنه إشارة رمزية إلى النظام الذى أعدّه الله لتطهير الإنسان بالدم الغالي الذي سُفِك على الصليب ليطهرنا من كل

خطية إن كل نظام العبادة اليهودى إنما هو رمز بتفاصيله العديدة إلى طريق الله للخلاص الذى أعلن فى المسيح . فقد كان على الإنسان الذى يريد أن يتقدم إلى الله أن يأتى ويَقدّم ثوراً أو كبشا إلى الكاهن ، ويضع يده على رأس الثور معترفا بخطاياه ، ثم يذبح الكاهن الذبيحة فتموت بدلاً من الانسان على مذبح المحرقة ، ويأخذ الكاهن من دمها ويدخل به إلى القدس ، وينضح من الدم على مذبح البخور .

وفى يوم الكفارة العظيم ، كانت الأمّة كلها تأتى إلى الرب صائمة متذللة تائبة ، وكان رئيس الكهنة يتقدم حاملاً على صدره أسماء أسباط إسرائيل الإثنى عشر ، ثم يقدّم ثوراً ذبيحة عن خطاياه هو ، ثم يقدَّم إليه تيْسان نيابة عن الشعب ، أولهما ذبيحة للرب يذبح فى الدار الخارجية للهيكل ، ويأخذ من دمه ويدخل به إلى قدس الأقداس وينضح من دمه أمام تابوت عهد الرب وعلى غطاء التابوت ، ثم يخرج إلى القدس ويضع من الدم على قرون مذبح البخور ، ثم يخرج ويحرق التيس خارج المحلة . وهذا التيس يرمز إلى تحقيق عقاب الخطية وهو الموت — والتيس الثانى يسمى «تيس عزازيل» أى الانطلاق ، وهو أيضاً يمثل الشعب إذ يعترف الشعب على رأس التيس بخطاياهم ، ثم يُطلق سراحه فى البرية إشارة إلى استبعاد خطايا التائب واطلاق سراحه .

وهكذا كانت سائر الشرائع الطقسية اليهودية كلّها إشارات محسوسة إلى حقائق غير محسوسة . فمثلا كان الناموس يعتبر الإنسان نجساً إذا مسَّ جسما مّيتاً ، ويُمنَع هذا الإنسان من عباده الله إلى أن يتطهّر بذبح

عِجْلة حمراء ويُحرقَ جسدها مع أُرْز وزوفا وقرمز ليتحول إلى رماد ، وقد قال رسول العبرانيين عن هذه الذبائح الطقسية إنها أمثلة للأشياء التى في السموات .

«لأن موسى بعدما كلم جميع الشعب بكل وصية بحسب الناموس ، أخذ دم العجول والتيوس مع ماء وصوفا قرمزيا وزوفا ورش الكتاب نفسه وجميع الشعب ، قائلا هذا هو دم العهد الذى أوصاكم الله به . والمسكن أيضا وجميع آنية الخدمة رشها كذلك بالدم . وكل شيء تقريبا يتطهر حسب الناموس بالدم وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة .

فكان يلزم أن أمثلة الأشياء التى فى السموات تطهرّ بهذه ، وأما السماويات عينها فبذبائح أفضل من هذه . لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقية ، بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا» (عب ٩ : ١٩ – ٢٤)

ثم يتحدث رسول العبرانيين مؤكدا عدم قدرة الذبائح على التطهير الحقيقى ، ولكن التطهير الحقيقى تمّ بمشيئة المسيح أن يقدّم ذاته اختياريا لأجلنا وبذلك صار جسده هو الذبيحة الدائمة المقبولة .

«لأن الناموس إذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء ، لا يقدر أبداً بنفس الذبائح التى يقدمونها كل سنة أن يكمّل الذين يتقدمون . لذلك عند دخول المسيح إلى العالم يقول ذبيحة وقربانا لم تُرِد ، ولكن هيأت لى جسداً .. محرقات وذبائح للخطَية لم تُرد ...

هأنذا أجيء لأفعل مشيئتك يا الله .. فبهذه المشيئة نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة» (عب ١٠)

«لأنه إن كان دم ثيران وتيوس ورماد عِجْلة مرشوش على المنجسّين يقدس إلى طهارة الجسد ، فكم بالحري .. دم المسيح .. يطهر ضمائركم من أعمال ميتة» (عب ٩ : ١٣ ، ١٤) .

إذاً فطقوس الذبائح اليهودية كانت تطهّر من النجاسة الطقسية (الخارجية) فقط ، لكنها لم تطهرّ القلب والضمير ، ولذلك كانت تُقدم على الدوام ، ومع ذلك فشعور الخاطىء بالذنب كان مازال موجودا . كما قال الكتاب «وكل كاهن يقوم كل يوم يخدم ويقدّم مراراً كثيرة تلك الذبائح عينها التي لاتستطيع البتة أن تنزع الخطية» (عب ١٠ : ١١) .

ولعلنا نلاحظ كيف أن شاول الطرسوسى قبل إيمانه بالمسيح كان يتمم جميع الفرائض والطقوس حتى إنه قال عن نفسه إنه «من جهة البرّ الذى فى الناموس بلا لوم» (في ٣ : ٦) ومع ذلك فقد كان يشعر بَحيْرة وقلق حتى أراد بحماس شديد أن يرضي الله بكل وسيلة حتى ولو كانت قتل واضطهاد المسيحيين الذين كان يظنهم أعداء الله . إن كل أعمال الناموس لم تعطه راحة الضمير .

هنا يظهر فضل النعمة الإلهية التى جعلت الله يرسل ابنه الوحيد الذي هو بهاء مجده ، ورسم جوهره ، ليقترب إلى الإنسان . إن الله دائما هو صاحب المبادرة . «والكلمة صار جسدًا وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما

لوحيد من الآب مملوءا نعمة وحقاً ... ومن ملئه نحن جميعا أخذنا ، ونعمة فوق نعمة» (يو ١) .

ولم يكن هذا الإعلان مجرد خبر ، بل كان أيضا عملاً كفّاريا ليفدينا ويقدسنا ، لنستطيع أن نظهر أمامه قديسين وبلا لوم فى المحبة . ذلك لأن ذبيحة المسيح تغيّر القلب ، لأنها ترفع عن ضمير الإنسان حمل الخطية ، وتؤكد له بصورة وجودية مقدار محبة الله العجيبة ، وبابه المفتوح دائما . إنها تشعره أن حمل الخطية قد انزاح عن كاهله بموت المسيح نيابة عنه ، وبوعد الله الكامل الصادق بالغفران . لذلك عندما يتقدم المؤمن إلى الله إنما يتقدم فى المسيح ، مؤمنا به وبذبيحته ، ولا يعتمد على برّه الذاتى بل يتكل على فداء المسيح . وهو يتقدم كابن يجد من أبيه ذراعاً ممتدة لتنتشله ، وقلبا متفتحا لقبوله بالغفران والحب ... وهكذا يتطهر الضمير ... هذا الضمير الذى يكون هدفا لشكاوى الشيطان ضد المؤمن . فالشيطان يضع ضغوطا على ضمير المؤمن الذى يحس بالخطية ، ويريد أن يضع فى قلبه وعقله الاحساس بأن الرب يدينه ، وأن باب الله مغلق فى وجهه . وهدف المشتكى (إبليس) من ذلك هو أن يشوّه صورة الله أمام المؤمن لكى ينسى قيمة دم المسيح ؛ وبدلاً من أن يرى الله فى المسيح مصلوبا ومصالحا العالم لنفسه ، يريده أن ينظر إلى الله كعدو ، وكإله حاقد قد خلا من المحبة والحنان ، وذلك لكى يندفع المؤمن الضعيف إلى اليأس والفشل ، وبذلك يقتنص الشيطان الإنسان لإرادته ، لأن الإنسان اليائس معرَّض أن يعمل كل المفاسد دون مبالاة .

وبينما يشتكى الشيطان على المؤمن ، إذا بالرب يسوع المسيح عن يمين الله يحامى عنه ويشفع فيه ويعلن أمام الآب أنه قد دفع بدمه ثمن خطية هذا الإنسان ، وأن عمل الصليب عمل تام ، وأن الخطية التى اقترفها هذا الإنسان قد غُسِلت بالدم الكريم ، وهكذا يستطيع الإنسان المؤمن أن يتقدم بثقة إلى عرش النعمة عالما أنه يجد نعمة وينال رحمةً عونا فى حينه .

هذا هو تطهير الضمير من أعمال ميّته ، فكل مجهودات الانسان لتطهير ذاته ولاصلاح حياته بقوة ارادته ، ولتهذيب نفسه ، إنما هى أعمال ميتّة لأنها صادرة من ميّت ، وتقود إلى الموت الثانى . لكن ذبيحة المسيح تقدم لنا رسالة المصالحة ، فنستطيع أن نقول مع بولس :

«إن كان الله معنا فمن علينا .. من سيشتكى على مختاري الله ؟ (هل تظنون أن الله سيفعل ذلك ؟ كلا بالطبع) الله هو الذى يبرّر . من هو الذى يدين (سيدينهم) ؟ (هل تظنون أن المسيح سيفعل ذلك ؟ كلا بالطبع لأن) المسيح هو الذى مات بل بالحرى قام أيضا الذى هو أيضا عن يمين الله الذى أيضا يشفع فيناً» (رومية ٨)

لذلك لاعجب إن كنا نرى أن السجود والعبادة وتقديم المجد والاكرام للسيد المسيح مؤسس على أنه الذبيحة الكفارية . فباعتباره الخروف المذبوح أصبح مستحقا أن يعلن إدارة الله للبشر المرموز إليها بالسفر المختوم فى سفر الرؤيا ، لذلك كانت الترنيمة التى سمعها الرائى تقول : «مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه لأنك ذُبحِت

واشتريتنا لله بدمك» (رؤ ٥ : ٩) ثم نرى الترنيمة تستمر فى تقديم التمجيد والكرامة للمسيح بنفس الروح التى تقدم بها الى الله الآب الخالق . ففى رؤ ٤ : ١١ ترنم الخليقة والسماء لله : أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهى بارادتك كائنة وخُلقت» ، وفى رؤ ٥ : ١٢ تقول : «مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة» ، ثم يتحد التمجيد بالقول : «للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين» (رؤ ٥ : ١٣)

وقد عبر بولس الرسول عن ذلك عندما أعلن أن المسيح إذ أخلى نفسه وأخذ صورة عبد وصار فى شبه الناس وأطاع حتى الموت موت الصليب «لذلك رفعّه الله أيضا وأعطاه اسما فوق كل اسم لكى تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض» (فى ٢ : ٩ ، ١٠) . هذا هو المدخل إلى الاقتراب إلى الله — ذبيحة المسيح .

(٢) السير فيه :

يقول رسول العبرانيين :

«فإذ لنا أيها الأخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع ، طريقا كرّسه لنا حديثا حيّا بالحجاب أى جسده ، وكاهن عظيم على بيت الله ، لنتقدم بقلب صادق فى يقين الإيمان مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير ، ومغتسلة أجسادنا بماء نقى ، لنتمسك باقرار الرجاء لأن الذى وعد هو أمين ،

ولنلاحظ بعضنا بعضا للتحريض على المحبة والأعمال الحسنة ، غير تاركين اجتماعنا كما لقوم عادة ، بل واعظين بعضنا بعضا» (عب ١٠ : ١٩ - ٢٥).وكأنما يقصد الرسول أننا وقد دخلنا إلى الشركة مع الله بالمصالحة معه بدم المسيح ، عندئذ نستطيع أن نمارس كل أنواع التعبير عن هذا الجوّ الجديد أو البيئة الجديدة التى أدخلنا الله إليها ، بما تشمله من ثقة ورجاء وسجود وترنيم وخدمة ووعظ وشركة مع الاخوة . وهذه هى خدمة الله الحىّ التى أشار إليها رسول العبرانيين أيضا فى قوله «يطهّر ضمائركم من أعمال ميّتة لتخدموا الله الحى» (عب ٩ : ١٤)

إن الانسان يستطيع أن يمارس كل أنواع العبادات والخدمات بضمير غير طاهر فيكون بعيداً عن العبادة الحقيقية ، وكل تلك الأعمال إنما تكون أعمالاً ميّتة ، وماهذه الأعمال الميّتة سوى مجهوداتنا الإنسانية بدون الله . هى الاحساس بأن أيدينا تخلصنا ، هى التنافس الظاهرى على الطاعة الناموسية دون محبة .. هى التدقيق فى مظاهر الحياة دون جوهرها ... هى تنقية خارج الكأس دون أن نبالى بما فى داخلها . ألم نر شاول الطرسوسىّ يتعب ويجاهد ويصلى ويصوم ويقدم ذبائح ويأخذ رسائل من رئيس الكهنة إلى الولاة ليسوق المسيحيين موثقين إلى أورشليم ، وكان يظن أنه بذلك يؤدى خدمة لله ... ثم يعود ويصلى شاكراً الله أنه ليس مثل باقى الناس ، وأنه يتمم الفرائض بتدقيق . وكما قال فى رسالته إلى أهل فيلبى : «إن ظنَّ واحد آخر أن يتكل على الجسد فأنا بالأولى . من جهة الختان مختون فى اليوم الثامن ، من جنس إسرئيل ، من سبط بنيامين ، عبرانى من العبرانيين ، من جهة الناموس

فريسيّ ، من جهة الغيرة مضطهد الكنيسة ، من جهة البر الذى فى الناموس بلا لوم» (فى ٣ : ٤ - ٦).هذه هى الأعمال الميتة التى تطهّر ضمير بولس منها بعد الإيمان وقال : «ما كان لى ربحا فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة» . لقد تحرر من الشعور بالإثم بنواله الغفران ، لكنه تحرر أيضا من الشعور بالفخر ومن الشعور بالذات . أحس أن أعماله قد سبق الله فأعدها له لكى يسلك فيها . ليس له فضل فيما يعمله ، لكنه يخدم نتيجة المحبة ، ويخدم الله بتواضع . وما أبعد الفرق بين صلواته قبل هذا الاختبار ، وصلواته بعدها ... أو ترنيماته قبل هذا الاختبار وترنيماته بعدها عندما كان هو وسيلا فى السجن يصليان ويسبحان الله . فالإنسان إذ يسير فى طريق العبادة ، ينظر دائما إلى المسيح الذى به صار لنا الدخول إلى أقداس الله . وعندئذ يستطيع أن يقدّم لله روحه المنكسرة ذبيحة لأن «ذبائح الله هى روح منكسرة» (مز ٥١) ويقدم للرب فى كل حين «ذبيحة التسبيح أى ثمر شفاه معترفة باسمه» (عب ١٣ : ١٥) وينشغل بمحبة الإخوة وفعل الخير والتوزيع «لأنه بذبائح مثل هذه يُسَرُّ الله» (عب ١٣ : ١٦) ، وفى شكره الدائم يذبح لله حمدا ويوفى العلي نذوره ويدعوه فى يوم الضيق (مز ٥٠ : ١٤ ، ١٥) ويسلك فى المحبة ، وكما «أحبنا المسيح أيضا وأسلم نفسه لأجلنا قربانا وذبيحة لله رائحة طيبة» (أف ٥ : ٢) هكذا نقدم أجسادنا ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتنا العقلية (رو ١٢ : ١) .

وهكذا تكون حياتنا كلها شكراً وتمجيداً وطاعة ، ويختبر المؤمن ما عبَّر عنه داود فى مزمور ٢٧ .

«واحدة سألت من الرب وإياها ألتمس أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتى لكى أنظر إلى جمال الرب وأتفرس فى هيكله ، لأنه يخبئنى فى مظلته فى يوم الشر ، يسترنى بستر خيمته . على صخرة يرفعنى . والآن يرتفع رأسى على أعدائى حولى ، فأذبح فى خيمته ذبائح الهتاف . أغني وأرنم للرب» (مز ٢٧ : ٤ - ٦)

(٣) على قمة الطريق :

وإكليل السير فى طريق التعبد لله هو رؤيا الله . فهى تاج النقاوة والطهارة ، فعندما يتنقّى القلب ، وتُطهّر الحياة ، يستطيع الإنسان أن يتمتع بأمجاد رؤيا الله : «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله» (متى ٥ : ٨)

ورؤيا الله هى أشواق القديسين وأحلام المؤمنين . نراها بصورة أولية فى الوجود فى بيت الله وفى الشركة معه . هكذا تمنّى المؤمنون فى مختلف العصور ، كما رأينا المرنم يلتمس طلبة واحدة أن يسكن فى بيت الرب كل أيام حياته . وعندما حُرِم بنو قورح من الوجود فى هيكل الله ، عبّروا عن شوقهم فى مزمور ٤٢ قائلين : «كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسى إليك يا الله . عطشت نفسى إلى الله إلى الإله الحىّ ... متى أجىء وأتراءى قدام الله» .

ففى قلب كل انسان مؤمن شوق إلى رؤيا الله .. وعندما يتنقّى القلب نستطيع أن ننظر وجه الله بالايمان وصفاء النفس فى هذه الحياة ،

إلى أن نرتقى إليه فى مجده ونرده وجها لوجه ، فتشبع النفس برؤياه ، وتغتذى على وجهه الصبوح . وما أجمل قول المرنم : «أما أنا فبالبرّ أنظر وجهك . أشبع إذا استيقظت بشبهك» (مز ١٧ : ١٥) . فنحن هنا نراه بقلوبنا واحساساتنا ، وعندما نستيقظ فى الأبدية ، نرى ابتسامته تتوّج أفراح السماء .

ما هى علاقة نقاوة القلب ، وطهارة الضمير برؤيا الله ؟ إنها ليست مجرد الاقتراب إلى الله ، لكنها تتعدى ذلك إلى لذّة التمتع به ، وادراك طبيعته وصفاته ، وتذوق صلاحه ومحبته ... وهذه هى روعة اللقاء . وهذا لا يتم إلا بنقاوة القلب . والنقاوة هنا تعنى عدم اختلاط الرغبات ؛ ويُستخدم التعبير اليونانى لوصف اللبن غير المخلوط بالماء ، أو المعدن غير المغشوش . وكأنما السيد المسيح يقول لنا :

«طوبى لأصحاب النيّات غير المغشوشة ، والدوافع غير المختلطة ، لأن هؤلاء هم الذين يتمتعون بالله» . ولو أننا فحصنا أعماق النفس الإنسانية لوجدنا أننا من النادر أن نعمل عملاً صالحاً بدون دوافع مختلطة .. فعندما ندفع شيئا ما لمشروع معين ، لعلنا نقصد إرضاء دوافع مختلطة في قلوبنا ، فنحن قد نبتغى ابهاج نفوسنا والرضى عن ذواتنا لعمل الخير ؛ وقد نكون راغبين فى السعادة بالشكر الذى نتوقعه ، والثناء والتقدير اللذين ننالهما نتيجة هذا العمل ؛ وقد نرغب فى السيادة على الغير بعمل الخير ، وإلى غير ذلك من الدوافع التى تكمن فى النفس . ونحن إذا عملنا عملاً من أعمال التضحية فربما نظرنا إلى نفوسنا نظرتنا

إلى الأبطال ، واعتبرنا أنفسنا فى مصاف الشهداء .... حتى أكثر الوعاظ إخلاصاً ليس متحررًا تماما من خطر الرضى عن نفسه لأنه قدّم عظة قوية رائعة ... هذه الدوافع المختلطة تحرمنا من أن نرى الله ، لأنها تشغلنا برؤيا ذواتنا .

إننا كلما تحررنا من الذات ، ومن كل الدوافع الأنانية ، استطعنا أن نتعمق في معرفة الله وتذوّق محبته . كلما تطهّرت ضمائرنا من الأعمال الميتة ، زاد احساسنا بفضل النعمة علينا وصار الله هو كلّ شيء لنا . إننا في هذه الحالة نتطلع إلى الأشياء من خلال «عين بسيطة» . والعين البسيطة هي التي لا ترى الشيء شيئين ، بل تلتفت إلى هدف واحد . وقد قال المسيح : «سراج الجسد هو العين ، فإن كانت عينك بسيطة ، فجسدك كلُّه يكون نيّرًا» (مت ٦ : ٢٢) . إن نقاوة القلب هي التى تضمن وحدة الهدف ، وعدم اختلاط الدوافع . وهكذا نستطيع أن نقول مع آساف . بعد أن اجتاز أزمة نفسية عندما رأى سلامة الأشرار ، ثم دخل إلى مقادس الله ، وتعلمَّ منه ، واكتشف جهله وبلادة فكره .. استطاع أخيرًا أن يدرك روعة الاقتراب إلى الله ورؤياه فقال : «أما أنا فالاقتراب إلى الله حسنٌ لى . جعلت بالسيد الرب ملجأى لأخبر بكل صنائعك .. من لى في السماء ومعك لا أريد شيئا في الأرض» (مز ٧٣ : ٢٨ ، ٢٥) .

إننا نرى الله بقدر ما نستطيع أن نتعمق في معرفته وبقدر ما تصفو دوافعنا ونيّاتنا ، فنظرة العالِم الفلكيّ إلى النجوم تختلف عن نظرة

الانسان العادى إليها . والإنسان العادى قد يسير في طريق ماويرى النباتات والأعشاب والأزهار البرّية ، فلا يدرك منها إلا شكلها الخارجى ، لكن عالم النبات يستطيع أن يرى فيها عالما كبيرا مليئا بالأنواع والأشكال ... هكذا البشر ، إنهم يعيشون في عالم واحد ، ويرون نفس الأشياء ، ويسمعون نفس الأصوات ، وأحيانا يجتازون نفس الاختبارات ؛ لكن البعض منهم لا يرى إلا اليأس والفشل والحزن والصعوبات ، بينما يرى البعض الآخر الأمل والقوة والاشراق والرجاء . الفرق هو في صفاء النفس ونقاوة القلب وطهارة الضمير . إن اتجاه القلب يحدد لنا ما نستطيع أن نراه ، فأصحاب القلوب النقية يرون الله ، وأصحاب القلوب غير النقية المختلطة بالرغبات الانسانية والشهوات ، لا يستطيعون أن يروا الله .

ورؤيا الله هي تاج القلب النقى ، نراه هنا ... ونزداد في الرؤيا والعمق ، فيعدّنا الله إلى مزيد من الإعلانات التى يكشفها لنا ، ونتغير من الداخل ، فنكون في طريقنا إلى المجد ، كما قال الرسول : «ونحن ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما فى مرآة ، نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢ كو ٣ : ١٨) .

وهكذا نتغير نحن فى الداخل لنرى الله ، ونُعَّد روحيا لكمال اللقاء في المجد ، وهذا هو شوقنا ورجاؤنا . ه

«أما أنا فقد علمت أن وليى حى ، والآخر على الأرض يقوم ، وبعد أن يفنى جلدى هذا وبدون جسدى أرى الله الذى أراه أنا لنفسى وعيناى تنظران وليس آخر . إلى ذلك تتوق كليتاى في جوفى» (أى ١٩) .

الفصل الرابـــع

الصـــــلاة

يمكن للإنسان البعيد عن الله ، عندما يشعر فى أعماق نفسه بحاجته إلى الله ، أن يلتجىء إليه ويصليّ ، وقد تكون مثل هذه الصلاة بداية لتكوين علاقة بين هذا الانسان وبين الله ؟ ولكن الانسان القريب من الله بالايمان لا يمكن أن يستغنى عن الصلاة ، فهي بالنسبة له ليست أمراً طارئا أو عارضا ، إنما الصلاة عنصر أساسي فى العبادة . ونحن إذا نظرنا إلى الترنيم كنوع من الصلوات المنظومة والمرتلة ، والى العطاء كتعبير عن الشكر المرفوع إلى الله والانشغال بعمله ، فإننا سنجد أن الصلاة تحتل مقاما هاما في العبادة لا يقل عن سماع كلمة الله مقروءة ومشروحة .

فإذا كانت العبادة مؤسسة كما سبق أن ذكرنا على اعلان الله ذاته لنا ، فإن الصلاة هى تجاوب الكنيسة مع هذا الإعلان ؛ وإذا كانت العبادة تنبع من عمل الروح القدس العامل فى الكنيسة ، فإن الصلاة هى لغة الروح القدس الذي يشفع فينا بأنّات لا يُنطْقَ بها . وإذا كانت العبادة هى اتجاه متحد للكنيسة كجسد المسيح فى حضرة رأسها المسيح ، فإن الصلاة تكون اتصالاً بين الكنيسة والمسيح يسبق الشهادة ، ويعتبر من وسائط النعمة التى يجدّد بها الله قوة الكنيسة ، لتستطيع أن تشهد له فى العالم . وقد قال أحدهم إن العبادة شركة ، والصلاة اتصال بالله .

والموضوع متشعب ومتسع لا يمكن أن نحيط به في عجالة قصيرة ، وقد كُتبت فيه مئات الكتب ، لكننا فى هذا المجال سنكتفى بالاشارة إلى أربع نقاط : **الأولى** عن الكنيسة المتحدة فى الصلاة إذ يحس الكاتب أن بعض الكنائس الانجيلية اهتمت بالجانب الوعظى والتعليمى فى العبادة ، وركزت على الصلوات الفردية والعائلية ، ولم تهتم الاهتمام الكافى بقيادة جماعة المؤمنين المتعبدة معاً إلى أن تجد فى الصلاة الجماعية أو المتحدة اشباعا روحيا يثرى حياة الأفراد والجماعة ، وربما كان التسبيح وحده هو ما تمارسه الجماعة المتعبدة معاً فى كثير من الكنائس ثم نرجو فى النقطة الثانية أن نشير إلى مفاهيم غير صحيحة عن الصلاة ، وبخاصة فى الصلوات الفردية ، وفى النقطة الثالثة نوضح أن الصلاة المسيحية علاقة باب ، ونختم هذا الحديث بنظرة أكثر عمقا إلى الصلاة .

أولا : الكنيسة المتحدة في الصلاة :

إن الصلاة أساساً عمل تشترك فيه الكنيسة وتتحد ، باعتبارها جسد المسيح . هذا هو الأساس أن تصلي الكنيسة أو جماعة المؤمنين معاً وتتجه نحو الله بتمجيد وشكر واعتراف وطلبات . أما الصلاة الفردية أو الشخصية فإنها شيء إضافى أوتكميلي يقوم به الفرد في تأملاته الشخصية وخلوته الفردية حسب شعوره بحاجته الخاصة . ومن المؤسف أن خلطا كثيرا يحدث الآن بين الصلاة الفردية الشخصية ، والصلاة المتحدة في الكنيسة . (ليس المقصود بالصلاة المتحدة هنا هو أن يصلي كل فرد صلاته الخاصة فى الاجتماع فى نفس الوقت ، وبذلك تكون الصلوات فردية لكل حاضر فى الاجتماع ، إنما المقصود هنا هو مايعرف باسم الصلاة الجمهورية أى التى يقوم بها فرد نيابة عن الجماعة أو يقود القائد الجماعة فيها حسب نظام مرتب) . هذا الخلط جاء نتيجة للاتجاهات الفردية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر وبخاصة عند الجماعات التقوّية والمتطهرة التى ركزّت على التقوى الشخصية للفرد ، دون المسئولية الجماعية المشتركة للكنيسة ، وانعكس هذا على الصلاة ، فاهتموا بالناحية الفردية فى الصلاة وأهملوا الصلاة المتحدة في الكنيسة . هذا الاتجاه أضرّ ضرراً بالغا بالطابع الجماعى المتحد للعبادة المسيحية — وكثيرون ممن لم يتعودوا على الصلاة المتحدة في الكنيسة أصبحوا يتمسكون دون وعى بأسلوبهم في الصلاة الفردية حتى إذا طلب منهم أن

يصلوا نيابة عن الجماعة لم يستطيعوا ذلك ، لأنهم لم يألفوا غير هذا النوع من الصلاة .

والحقيقة أن العبادة المسيحية عمل جماعي يتحد فيه المؤمنون معاً ، وكما أن الجماعة تجد نفسها وتتحرك أشواقها نحو الله عندما تسبح الله معا بالترنيم ، كذلك تستطيع أن تشعر بنفس الشعور عندما تتحد في الصلاة ، سواء كانت تمجيدا وشكرا ، أو اعترافا أو رفع طلبات إلى الله . والصلاة فى هذا الشكل من العبادة لا تكون تجميعا أو تكرارا لصلوات فردية شخصية لأفراد ، حتى ولو كانوا يجلسون إلى جوار بعضهم البعض في الكنيسة ويسمع كل منهم صلاة الآخر ، ولكن الفرد فى هذه الحالة يتجاوب مع مشاعر الجماعة وحاجاتها . فمن الأخطاء الشائعة في العبادة والتي نتجت عن الخلط بين الصلاة الفردية الشخصية والصلاة الجمهورية ، أن القائد سواءً كان راعيا أو علمانيا ، يقدّم صلاته الشخصية بدلاً من أن يقود الجماعة المتعبدة في الصلاة . فمثلا إذا كان قائد مدرسة الأحد يصلى فإنه يلقى صلاته الشخصية «فوق رؤوس» و «عقول» الأطفال الموجودين . وربما كانت تلك الصلاة رائعة ومخلصة وبلغة مؤثرة ، وتشمل طلبات لأجل هؤلاء الأطفال – لكنها لا تعبّر عن أحاسيس وصلوات الأطفال الموجودين ، ولا يشعرون أنهم يشاركون فى رفعها إلى الله . هم مجرد منصتون إليها إذا استطاعوا أن ينصتوا ولا ينشغلوا بشيء أو فكر آخر . ويحدث هذا أيضا فى اجتماعات الكبار ، فبدلاً من أن يعبّر المصلي عن روح الجماعة وحاجاتها وتشترك الجماعة معه في التوجه إلى الله بصلاة محدّدة الهدف ، وتقول بيقين

وشوق كلمة «آمين» فى النهاية ، فإن الذى يحدث أن المصليّ يصلي كما لو كان وحده ، حتى لو تكلّم لفظا بأسلوب الجماعة ... بل الأسوأ من ذلك أن تتحول الصلاة إلى استعراض التقوى الشخصية للمصليّ والرغبة فى التأثير على المصلين ، وبذلك تكون الصلاة في الواقع موجّهة إلى السامعين لا إلى الله . ألا نلاحظ هذا عندما نسمع أو تضمر تعليقا على صلاة معتنية بأنها كانت حلوة ورائعة ومؤثرة !! ... ونحن نتساءل مؤثرة في مَنْ ؟!! ويتندرون أن بعض الناس في إحدى الكنائس يحضرون من مسافات بعيدة ليستمعوا إلى صلاة قسيس معيّن لروعتها وبلاغتها !!

إن الكنيسة هي التي تصلّي في العبادة الجمهورية ، والصلاة في خدمة العبادة ليست استماعا سلبيا إلى صلاة الراعي أو المصلي ، إنما الصلاة فيها صلاة شعب الله المتحد معاً في تمجيد أو شكر أو اعتراف أو طلبة ، حسب حاجة الكنيسة كجماعة ؛ وسواء رفع الراعي الصلاة أو رفعها أحد الإخوة نيابة عن الجماعة ؛ وسواء ارتجُلت هذه الصلاة أو أعدَّت مسبقا ؛ وسواء كان فيها جزء يردده الشعب وراء القائد أم قام القائد برفع الصلاة كلها ... فإن الصلاة تُرْفع من الجماعة المتعبدة كلها . لذلك يكون من المناسب أن يعرف العابدون أي نوع من الصلاة تُقَّدم في هذه الفرصة ، ليتجهوا بقلوبهم نحو الله مع المصلي . ومن المفيد أن يتدرب خدام الكنيسة وقادتها على النظم المتنوعة والأساليب الملائمة لرفع الصلاة الجمهورية . لتكون تعبيرا حقيقيا عن تعبد الناس معا لله .

وهناك أنواع متعددة من الصلاة في العبادة الجمهورية ، نذكر فيما يلي بعضا منها :

١ - صـلاة التمجيد Adoration :

وهى اعتراف متواضع من الإنسان بسلطان الله ، وتقديم السجود والإكرام له كإله . هذه الصلاة هي اتجاه المخلوق المتعبد نحو خالقه ، والخضوع الراضي السعيد لجلاله . إن هذه الصلاة موضوعية تتجه إلى الله ولا تنبع من احساسات ذاتية ، لكنها تصدر من العقل المنبهر والقلب الخاشع أمام الله .

٢ - صـلاة الابتهال Invocation :

وترتبط هذه الصلاة أحيانا بصلاة التمجيد وفيها تتضرع الكنيسة إلى الله أن يشرق بوجهه ليعين الكنيسة إذ تتعبد له .

وغالبا ماتكون صلاة التمجيد والابتهال في مستهل الخدمة ، إذ ان هذا مكانها الطبيعي ومن اللائق أن تبدأ الخدمة بتمجيد الله ودعوته ليشرق بوجهه على الاجتماع وبذلك يسكّن الناس نفوسهم قدامه .

٣ - صـلاة الاعتـراف Confession :

فإن اسلوب الحياة المسيحية يرتبط دائماً بالتوبة وتجديد الحياة . وذبائح الله هي روح منكسرة . لذلك يليق بنا بعد أن نمجّد الله ، أن نعترف له بخطايانا وعجزنا طالبين منه الغفران . وربما يكون من المناسب أنه بعد أن تعترف الجماعة المصليّة وتطلب الغفران ، أن يردد القائد من كلمات الكتاب المقدس بعض مواعيد الله التى تؤكد غفران الخطايا لمن يقرون بها ، مثل القول : «هلم نتحاجج يقول الرب : إن كانت

خطاياكم كالقرمز تبيّض كالثلج ، وإن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف» (إش ١ : ١٨) .

٤ – صـلاة الشـكر : Thanksgiving

وهي الصدى الطبيعي الذي يصدر عن الجماعة المتعبدة عندما يعلن لها الله مواعيده في كلمة الله المقروءة والمشروحة ؛ وعندما تتأمل في أعمال الله وعنايته وجوده .

٥ – صـلاة الالتماس والتوسل : Supplication

وفيها نقدم إلى الله طلباتنا عن حاجاتنا نحن ، وهناك أنواع كثيرة من الطلبات منها ما هو زماني ، وما هو روحي مثل طلب حياة الايمان والمحبة والطاعة والسلام . وجدير بنا أن نذكر وصيّة السيد المسيح أن نطلب ملكوت الله وبرّه ، وباقى الطلبات الجسدية تزاد لنا .

٦ – الصـلاة لأجل الغير : Intercession

ونحن هنا نترك الطلبات لأجل أنفسنا ونطلب لأجل غيرنا . وبهذا يحدث توازن معقول بين الذاتية والموضوعية في صلواتنا . هذه الصلاة قد تشمل المسائل العامة مثل سلامة الوطن والسلام العالمى ومواساة الحزانى والمتألمين والمأسورين ؛ وقد تشمل موضوعات خاصة تنشغل الجماعة المصلية بها .

٧ – ويضيف البعض أنواعا أخرى من الصلوات مثل صلاة طلب

الاستنارة التي يرفعها الواعظ قبل تقديم الرسالة ؛ وصلاة تذكر سحابة الشهود من المؤمنين الذين سبقونا إلى المجد ؛ وصلاة التكريس وغيرها ...

وليس شرطا أن تشمل كل خدمة عبادة جميع هذه الأنواع من الصلوات ، أو أن تكون كلُّ صلاة مستقلة عن الأخرى . فقد يكون التمجيد والابتهال معاً ؛ وقد يكون الاعتراف والشكر معا ... إنما من الضروري أن تكون الصلاة واضحة المعالم والهدف ، وأن يكون موقعها من خدمة العبادة ملائما لطبيعة الصلاة ونوعها ؛ وأن تكون متجهة إلى الله فعلا لا إلى الناس ، معبّرة عن رغبة الجماعة معا ، فتشعر الجماعة أنها جسد واحد ، مرتبط معاً ، ومتجه إلى الرأس .

ثانياً : مفاهيم غير صحيحة عن الصلاة :

بالرغم من أن الصلاة تحتل مكانا جوهريا في العبادة المسيحية ، إلا أنه من المؤسف أن مفاهيم غير صحيحة عنها استقرت في أذهان الناس ، فأبعدتها عن معناها الحقيقي . إننا مرات كثيرة نتأثر في نظرتنا إلى الصلاة بأفكار ومبادىء غير مسيحية ، ولعلها موروثة من التراث الانساني القديم ؛ وإذ تنعكس هذه الأفكار على حياتنا الدينية ونظرتنا إلى الله ، فإنها تؤثر في فكرتنا عن الصلاة .

١ - الصلاة كقوّة أشبه بالسحر :

كان الإنسان البدائي ينبهر من ظواهر الكون العجيبة التي لا يدري لها

تفسيرا ، لذلك كان دائما ينسب إلى الآلهة العجائب التي لا يقدر هو عليها . ومازال بعض الناس ينظرون إلى الصلاة كقوّة سحرية ، متأثرين بقصص الخيال الناتجة عن الحاجات الإنسانية والعجز البشري . وربما يشجعهم في ذلك نظْرتهم إلى المعجزات التى أجراها الله في التاريخ الكتابي ، متوقعين من الله أن يكررها ، دون أن ينظروا إلى حكمة الله في المعجزة في عصرها الخاص ، وقصده الشامل حين أجرى تلك المعجزة .

وما أكثر الناس الذين يتصورون الصلاة في شكل خاتم سليمان أو مصباح علاء الدين في قصص الخيال الروائى الإنساني ، تضغط عليه فيأتيك من يضع نفسه تحت أمرك ويحقق لك رغباتك . ونحن مرات كثيرة نتصرف في صلواتنا كأننا نشغّل الله لتحقيق أهدافنا وأغراضنا الخاصة ، وبدل أن تكون صلواتنا تمجيدا وتسبيحا وخضوعا لهذا الإله ، نجدها مليئة بالطلبات الأنانية أو الساذجة ، فنكون أشبه بتلك الطفلة التي أخطأت في امتحان الجغرافيا وكتبت أن روما هي عاصمة فرنسا ، ورجعت تصلي بحرارة أن يجعل الله روما عاصمة لفرنسا حتى يصير جوابها صحيحا ، وعندما وضح لها أبوها أن ذلك مستحيل ، صلّت أن يعمل الله في قلب المصحح ليتجاوز عن ذلك الخطأ ولا يحتسبه لها .

إننا ننظر إلى الله كقوة عظيمة قادرة على كل شيء ، فنريد أن نسخرها لخدمة أغراضنا ، ولتصحيح أخطائنا ، ولتغطية كسلنا واهمالنا .

- هذه النظرة هي من رواسب الفكرة التي يكوّنها البعض عن الله

كملك عظيم له سلطان أن يعمل ما يشاء حتى ولو كان غير منطقى ، أو كأب ذي سلطان فائق يلزمنا أن نستعطفه بكافة الوسائل ليحقق لنا رغباتنا . وهذه من بقايا النظرة إلى الله نظرة بشرية . لذلك نرى البعض يكررون الكلام في الصلاة ، وينمّقون العبارات ، والبعض يمعنون في تنغيم الصوت وتحسينه ؛ كل هذا للتأثير على عواطف ذلك الملك أو ذلك الأب أو الصورة البشرية التى يتصورون الله فيها .

ويروي لنا الكتاب المقدس كيف أن أنبياء البعل في عهد ايليا اصطفوا وداروا حول مذبح البعل وهم يرقصون ويصرخون ويقطّعون أنفسهم بالسيوف صارخين : « يا بعل أجبنا .. يا بعل أجبنا » وليس من يصغى أو يجيب ... ولقد نهانا السيد المسيح من تكرار الكلام باطلا « كالأمم » .. وهو يقصد بذلك أولئك الذين لا يعرفون طبيعة الله ويتصورونه في صورة بشرية ... ويظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم .

٢ – نظرة تبادل المنفعة :

أحيانا تكون نظرتنا إلى الصلاة تجارية الشكل ، اكتسبناها من علاقاتنا التجارية والتبادلية مع الناس . فالبعض يتصورون أنهم يقدمون لله العبادة والصلاة والصوم ، وفي مقابل ذلك يستجيب الله لطلباتهم . ومرات كثيرة نسمع بعض الناس كأنهم يلومون الله سبحانه وتعالى لأنه لم يقم بالمطلوب منه من « الصفقة » ، بينما قاموا هم بواجبهم ، فيقول الواحد في صلاته أو فكره الداخلي لله : « ياربّ ألم أصلى لك ؟ ألم أقم بواجبي في الصيام والتذلل لك ؟ فلمَاذا لم تحقق لي طلبتى فأنجح في

الامتحان أو في المشروع الفلاني ؟» كأنما الله محل تجارة نأتي إليه ونقدّم له الصلاة في مقابل ما نطلبه منه من طلبات .

٣ - التليفون السماوى :

وهناك من يصوّرون الصلاة بأسلوب العصر الحاضر العلمي والآلي بأنها أشبه بتليفون لاسلكي متصل بالسماء ، وعندما يأتي داعي الخطر نهرع إلى التليفون نطلب النجدة من الله فتصلنا سريعًا . ألم يقل الله : « ادعني في يوم الضيق أنقذك فتمجدني » ؟!! وهناك ترانيم يرددها البعض في نشوة وسرور مُتخيّلين أننا بالصلاة نرفع السماعة فيرد علينا الله من الجانب الآخر فنوصّل له الرسالة المطلوبة . ولماذا نعترض على هذا النوع من التفكير ؟ أليست الصلاة اتصالاً مباشراً بالله ؟ ألا يوجد « خط ساخن » للطوارىء بين الإنسان والله كالخط الساخن بين الكرملين وواشنطن ؟ ومهما كانت السماء بعيدة ، لكن ما أن يرفع الإنسان السماعة ويطلب الله ، فإن الله يسمعه فى التو واللحظة ...

لكن دعونا نحاول أن نتعمق قليلا في نقد هذا التصور ... ألا نراه يجعل الصلاة شيئا يتم آليا ويفرض فيه طرف ما نفسه على الطرف الآخر ويزعجه برنين الصلاة ؟ أين هذا من العلاقة بالله الذي يرضى بسرور أن يصغي الينا بالنعمة ، ويعلم بحاجاتنا قبل أن نسأله ؟ أين هذه الاتصالات المتقطعة ، من علاقة حياة الشركة المستمرة ؟ كذلك ألا توحى لنا هذه الفكرة بأن الله بعيد جدا . نحاول بالصلاة أن نبلّغه الرسالة وهو بعيد عنا ؟ هل الله بعيد فعلا عنا بهذا المقدار ؟ وهو الذي دنا إلينا في المسيح

وحلَّ بيننا ، وهو بالروح القدس يسكن في قلوبنا ؟!! هل يوجد من هو أقرب من الله الينا ؟ إن الصلاة ليست وسيلة تقنية فنية ، ولكنها معجزة النعمة الإلهية .

ومن الملاحظ أن أصحاب هذه المفاهيم غير الصحيحة عن الصلاة ، يستندون على آيات من الكتاب المقدس يستشهدون بها ، لكن الخطأ يأتي من عزل هذه الآيات عن النصوص الكاملة التي جاءت فيها فيصير المعنى مبتوراً ناقصاً . يقول البعض إن السيد المسيح وعد قائلاً : « مهما سألتم باسمي فذلك أفعله » (يو ١٤ : ١٤) . وقد اعتبروا هذا الوعد مطلقا مع أنه مرتبط بالايمان الناضج ، وبالفهم الصحيح لمعنى الصلاة باسم المسيح ، وهدفه أن يتمجد الآب بالابن كما يظهر من النصوص السابقة واللاحقة للآية . ونفس الشيء بالنسبة لوعد المسيح : « تطلبون ما تريدون فيكون لكم » (يو ١٥ : ٧) . فإنه مرتبط بالثبوت في المسيح ، وثبوت كلامه في المؤمن . وهذا يقتضي نوعا خاصاً من الحياة والعلاقة مع الله . إن الله يعطى للانسان سؤل قلبه فعلا ، لكن هذا يحدث إذا تلذذ الإنسان بالرب (مز ٣٧ : ٤) . والطلب باسم المسيح ليس مجرد وضع التعبير « في اسم المسيح » في ختام الصلاة ، ولكن معنى الطلب باسم المسيح أن يكون الإنسان في روح المسيح وفي إطار النعمة التي ظهرت في المسيح ، فيتغير مفهومه ونظرته إلى الحياة في ضوء هذا الإطار .

٤ – صلاة الإذعان :

هناك من ينظرون إلى الصلاة على أنها مجرد إذعان وتسليم للرب ، فيرددون الطلبة القائلة «لتكن مشيئتك» أو «لتكن لا ارادتي با ارادتك» . وهل هناك خطأ في ذلك ؟ ماذا يمكن أن يقال في الصلاة أسمى وأعمق من هذه الطلبة التي فيها ينبذ الإنسان إرادته تماما ويسلمها لله ؟ أليست كل التقوى نابعة من مثل هذا التسليم واخضاع الارادة لله ؟ أليس هذا هو الاعتماد الكلي على الله وسلطانه المطلق ومشيئته الصالحة ؟

إلا أننا ينبغي ألا نتسرع في حكمنا على هذه الصلاة ، فليس كل من يرددونها يحتفظون بالروح الحقيقية التي يريدنا الله أن نراعيها في حياتنا . صحيح هناك بعض المؤمنين الأتقياء الذين يصلون هذه الصلاة بعمق وبشعور كامل بالمسئولية ؛ لكن آخرين يرددون نفس العبارات من منطلق الاهمال والتهرب من مسئوليتهم الشخصية . وقد قال أحدهم مرة إن مثل هذه الصلاة قد تعبّر في بعض الأحيان عن أعمق أنواع الرياء من الإنسان . فقد يكون تسليمنا لله غير مخلص ، وقد نكون هاربين من مسئولية مواجهة واقعنا ، فتكون هذه الصلاة نوعا من التواكل البليد للكسول الذي لا يريد أن يجاهد قدر طاقته ، ويتخذ من مشيئة الله «شماعة» يعلقّ عليها تواكله وكسله ؛ أو للجبان الذي يخاف أن يتحمل مسئولية قرار يتخذه ، فيلجأ إلى هذا النوع من التسليم تهربا من مسئوليته .

وقد تكون هذه الصلاة نوعاً من الإذعان الذي يسلكه المغلوب على

أمره ، ولسان حاله يقول : « لماذا أتعب نفسى والله سيعمل ما يريده على أي حال . فلا داعي إذاً لأن أعمل شيئا وكل ما يحصل فيما بعد سيكون حسب ارادة الله والله هو المسئول »

إن مثل هذه الصلاة التى قد تبدو جميلة رائعة ، قد تحمل في طياتها نوعاً من عدم الثقة في محبة الله ، الذي يكون في نظر المصلي أشبه بالطاغية الذي سيعمل ما يريده أيًا كانت التوسلات المرفوعة إليه ، وليس الأب العطوف الذي يقدر ظروفنا ويحس بما نعانيه وبذلك تكون هذه الصلاة هروبا من المسئولية ومن مواجهة مسائل الحياة الواقعية ، فنحن نترك كل شيء لله ولا نكون مسئولين أمامه عن شيء ، وكأننا لا نبالى بما يحدث في العالم حولنا ، وننسى أننا عاملون مع الله ، وعلينا مسئولية العمل .

ثالثا : الصلاة المسيحية علاقة بأب :

إننا نستطيع أن ننظر إلى الصلاة من عدة زوايا تساعدنا على فهم حقيقتها في المسيحية ؛ ومن بين هذه الزوايا أننا كمسيحيين نقدّم إلى الله صلواتنا باعتباره الأب السماوى لنا ، ومن منطلق وجودنا في عائلة الله . لذلك فصلواتنا جزء من كياننا كأبناء لله ؛ أى أن الصلاة ليست عملاً منفردا مستقلا عن شخصياتنا ، لكن المسيحى بكيانه كله وكفرد في أسرة الله يتجه إلى الله دائما . على هذا الأساس قال داود : «أما أنا فصلاة» (مز ١٠٩ : ٤) . وقال السيد المسيح : «صلّ إلى أبيك» (مت ٦ : ٦) ومن هذا المنطلق نتبين عدة أمور :

إن أبانا يعلم مانحتاج إليه قبل أن نسأله :

هذا ماذكره السيد المسيح في إنجيل متى ٦ : ٨ . فالصلاة ليست تذكيرا لمن لا يعرف ، ولا استرحاما لمن لا يريد ؛ بل الصلاة هى لأب يعرف ويريد . إذاً ما هي حكمة الصلاة لهذا الأب العالم بالحاجات ؟ إننا فى إطار علاقتنا به ومعه ، نتحدث إليه عن ظروفنا ، مؤكدين له أننا في حاجة إلى وجوده معنا وإرشاده لنا . إننا نشعر في حياتنا العملية أننا في حاجة إلى آبائنا الأرضيين مادمنا قاصرين ومعتمدين عليهم ، لكن الله غير منظور ، وهو يعطينا بركاته عن طريق القوى الطبيعية والقدرات البشرية ، لذلك فنحن مجرَّبون أن نتصور أننا في غنى عن الله وأننا نستطيع أن نعتمد على مصادرنا الطبيعية والبشرية ... وهذا هو الالحاد بعينه ؛ فالالحاد هو الحياة بدون إله ، والايمان هو الاعتماد اليومي على الله ، والصلاة تعبير عن هذا الايمان وتأكيد له . وعندما يستجيب الله لنا نسعد ونفرح باستجابته ونقدم له الشكر ونشعر بأنه وراء كل البركات .

٢ - إن علاقتنا مع هذا الأب هى علاقة شركة :

فقبل أن تكون علاقتنا مادية أو طبيعية ، هي علاقة شركة وسعادة في اللقاء ... نحن نحتاج إلى شخص الله قبل أن نحتاج إلى بركاته ... نحن نحتاج إلى قلبه النابض بحبنا قبل أن نحتاج إلى النجاح أو الرخاء أو الصحة ... إننا في حاجة إلى **شخص** وليس إلى **شيء** . لذلك فالسؤال الشائع : ماذا أنال عندما أصلي ؟ سؤال غير وارد في المسيحية ، لأن الشركة هدف في حد ذاتها .

ولقد أعجبتنى ترنيمة في اللغة الانجليزية عنوانها (In the Garden) لأنها تصف الصلاة والشركة حديقة جميلة ، وحاولت أن أضع لها كلمات تتفق مع اللحن ومع المعنى في نفس الوقت ، فجاءت هكذا :

١ - يسوع الحبيب منـاي أختلي به في صلاتي
هذه الخلوة . جنة حلوة قد أسعدت حيـاتي
٢ - من سحر صوته اللطيف ها الطيور همسا تغنّي
في فمي أعطى نغمة الغبطة والحبّ والتمنـي
٣ - ما أحلى الساعات التـي نسعد فيها بالتـلاقي
ثم يدعوني : اذهب اخدمني محققـا أشواق

قرار :

دائمـا معـي ماسك يدى «أنت لي» صوتـه قد قال
يا لغبطتـي يا لبهجتـي من مثلي ، ذا المجدَ نال

٣ - إن الأب لا يعطينا دائما ما نطلبه ، لكنه بالتأكيد يعطينا ما نحتاج إليه :

إن نظرتنا قاصرة ، ورؤيتنا محدودة ، لذلك نتضايق عندما يمنع عنا الله بعض ما نطلبه ، لكننا إذا عرفنا أن كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله ، نؤدى واجبنا ونخضع لارادة الآب واثقين أنه يعمل لخيرنا .

وقد ذكر السيد المسيح عدة أمثلة تبين أنه إذا كنا ونحن آباء أرضيون أشرار نعرف أن نعطي أولادنا عطايا جيدة ، فكم بالحري أبونا السماوي ؟ ... إنه لن يخدعنا أو يرضى لنا بضرر . إن الرب يعطينا أحيانا ما نطلبه حتى ولو كان إيماننا ساذجا وضعيفا لكي يشجعنا على الثقة به وتوطيد العلاقة بشخصه . فالمرأة التي لمست هدب ثوب المسيح كانت ساذجة لأنها ظنت أن لمس هدب ثوب المسيح يحمل في ذاته بركة لأن معلمي اليهود كانوا يعرّضون أهداب ثيابهم ويضعون فيها آيات من الشريعة . لكن المسيح لم يخيّب رجاءها وإيمانها الساذج وقال لها : « إيمانك قد شفاك » .

والرب يرفض طلباتنا أحيانا لأنه يريد لنا درساً روحيا ، فقد صلى بولس ثلاث مرات أن ينزع الله عنه شوكة الجسد التي كانت تضايقه كأنها « ملاك الشيطان يلطمه » ، لكن الرب قال له : « تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل » (٢ كو ١٢ : ٧ ، ٩) . كانت الشوكة ضرورية لبولس حتى لا يرتفع ويتكبر من كثرة إعلانات الله له .

وأحيانا يتأنى الرب في استجابة طلباتنا لكي يزيد ثقتنا به ، وانتظارنا له ، وأشواقنا إليه ... لكي يعلمنا الصبر . ولكنه يأتي ولو في آخر لحظة ، في الهزيع الأخير من الليل .

٤ – إن علاقتنا مع الآب السماوي في الصلاة هدفها الأول النضوج والنمو في النعمة .

إن حياتنا في أسرة الله يجب أن تتقدم إلى النضوج والادراك الكاملين .

ولا يمكن أن تكون الصلاة اختبارا مستقلا عن النمو الروحي للانسان . وادراكنا لمفهوم الصلاة يتغير كلما نضجنا . والله يتعامل معنا من هذا المنطلق . فالطفل الصغير قد ترضيه قطعة من الحلوى ، أو لعبة يلعب بها بعض الوقت . والصبيّ قد تسُرّه مظهريات الملابس الجديدة والأطعمة اللذيذة والمتعة العابرة ... لكن الشخص الناضج تسعده جلسة حوار فكري مثمر ، أو مشروع منتج يسُدّ حاجة في المجتمع ، أو كتاب مفيد يثري فكره ويسمو بعقله ، أو خدمة إنسانية تخفف آلام المتألمين ... هكذا في الصلاة ، كثيرون ما زالوا عند مرحلة الطفولة المهتمة بذاتها ، لكن من ينمو في معرفة الله يستطيع أن يطلب أشياء أعظم وأسمى . لذلك قال السيد المسيح وهو يريد من تلاميذه أن ينموا وينضجوا : «لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ... ولا لأجسادكم بما تلبسون ... اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره» (مت ٦ : ٢٥ ، ٣٣) .

٥ - إن علاقة المظهر ليست لها قيمة كبرى في الصلاة المسيحية :

أنت لا تأتي إلى أبيك لتطلب منه شيئا فتلقي أمامه خطبة بليغة ... ولا يتطلب منك أبوك أن تقف في وضع معيّن ، وفي حركات مسرحية توجه إليه حديثك . إن الآب يفهم الابن من أقل اشارة . إنه يعرف أعماق ابنه ، ولا يهتم بشكل الطلب بل بجوهره . هذا لا يعنى اهمال تقديم الاكرام اللائق لله ، فإن الله كسيد وكأب يطالب البشر بتقديم المهابة والكرامة له . لكن هناك أناسا يصلّون ظاهريا قبل كل عمل ، ويبدو للناس أنهم يطلبون مشيئة الله فعلا ، لكن قلوبهم تكون مصممة

على ماتريده ، وهم يحملون نيّة مبيّتة في نفوسهم لا ينوون تغييرها . وبعض الناس يتخذون من مظهر الصلاة ستارا لينالوا احترام الناس وتقديرهم . إن روح الفريسية موجودة عند كثيرين ... يشكرون على الطعام والشكوى مستقرة في قلوبهم ؛ يصلون لكي يظهروا للناس أتقياء ، لكن معاملتهم للناس خشنة قاسية تخلو من الرحمة .. لقد أدان السيد المسيح ذلك بشدة .

إن نظرة واحدة متبادلة بين الأب وابنته أو ابنه كافية لأنْ تنقل الفكر بين الاثنين ... إن ابتسامة حلوة مخلصة أفضل من عشرات القصائد من الشكر ... إن لمسة حانية أفصح تعبيرا من عشرات العبارات المنمقة .

وأسوأ ما يعوق الصلاة المسيحية هو الرياء ، فأساس العلاقة في جوّ الأسرة هو الثقة والصراحة والاخلاص . وقد لاحظ الرب أن كثيرين يتظاهرون بعبادته بالصوم والصلوات وقلوبهم ليست مخلصة أو متواضعة فقال : « يقترب إليّ هذا الشعب بفمه ، ويكرمنى بشفتيه ، وأما قلبه فمبتعد عنى بعيداً » (مت ١٥ : ٨) « لست أطيق الاثم والاعتكاف » (إش ١ : ١٣)

ولقد وجد الناس يحتفلون بمناسباتهم الدينية بضجّة كبيرة ، متصورين هذا اعلانا عن تدينهم ، بينما كانت حياتهم بعيدة عن الحق والرحمة والبرّ ، لذلك خاطبهم على فم عاموس النبى قائلاً :

«بغضتُ كرهتُ أعيادكم
ولست ألتّذُ باعتكافاتكم
إني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم
لا أرتضي
وذبائح السلامة من مسمناتكم لا التفت إليها
إبعد عني ضجة أغانيك
ونغمة ربابك لا أسمع
وليجرِ الحقُّ كالمياه
والبرُّ كنهر دائم»

(عاموس ٥ : ٢١ – ٢٤)

رابعًا : نظرة متعمقّة إلى الصلاة :

يتساءل الكثيرون : ما هي الصلاة ؟ وليس من السهل الإجابة على هذا السؤال . ففي «أصول الإيمان» تعرَّف الصلاة بأنها «تقديم أشواقنا لله باسم المسيح من أجل الأمور المطابقة لمشيئته مع الاعتراف بخطايانا والشكر على مراحمه» .

فإذا كانت الصلاة هى رفع أشواق الإنسان إلى الله ، فهل هي تعبير عن مشاعر وأحاسيس فحسب ؟ فهل هي لحظات من غياب الفكر ، وحضور العاطفة ؟ وكيف تجيء هذه الأشواق إلينا ؟ هل هي وليدة انفعال طارىء ، أو رغبة مستقرة في النفس والعقل ؟

إننا الآن في عصر عمليّ ؟ يؤمن بالفكر وينبّر على الأبحاث التي تتطلب فكراً عميقاً ، وجهدا عقليا مضنيا . ومن فرط تقدير هذا العصر الحديث للفكر ، استعان بعقول أو حاسبات الكترونية تفكر أسرع من العقل الإنسانى بمراحل مذهلة ، لتسرع بانجازات البشرية . إذاً فالتفكير هو النمط العصري للحياة ، وكثيرون ينتقدون الصلاة والمصلين باعتبار أن الصلاة اتجاه عاطفي عفا عليه الزمن .

لكن ... هل الصلاة اتجاه عاطفي فعلاً ؟ قد تكون كذلك عند البعض ، لكن هؤلاء لا يعرفون معنى الصلاة الحقيقي . إن الصلاة متى تعمقنا في ادراكها – هي نوع من التفكير . وهي بالطبع ليست مشابهة للتفكير النفعى الذي نستعين به لحل معضلة ما في العلوم أو في الاقتصاد . ونحن لا ندّعي ولا نقول إن الصلاة تفكير بديل يغني عن ذلك النوع من التفكير العلمي أو العملي ، لأننا لو قلنا ذلك فإننا نهبط وننزل بالصلاة إلى مرتبة السحر الذى يتصور البعض أنه يختصر الطريق إلى الحلول دون جهد أو معاناة . كلا ... إن العالم يحتاج إلى التفكير العلمي والاقتصادى والاجتماعى لحل مشكلاته المتنوعة ، لكن الصلاة نوع آخر من التفكير نراه ضروريا لتحقيق سعادة الإنسانية ؛ وبدون هذا النوع من التفكير المُصليّ فإن كل أنواع التفكير الأخرى تكون معرّضة للفشل والانحطاط .

١ – الصلاة تفكير مهتمّ شفوق :

فهناك نوع من التفكير يدرس الظواهر المختلفة فى العالم ويحلل أسبابها

ويقيس مظاهرها ويراقب نتائجها . لكن هذا التفكير تفكير موضوعى ، فالدارس لا يهمه سوى الحصول على نتائج صحيحة مطابقة للواقع أياً كانت آثار هذه النتائج على العالم وعلى البشر ؟ لكن هناك نوعا آخر من التفكير ينشغل بنفس الظواهر ، ولكن من حيث أثرها على الانسان وسعادته أو شقائه ، ويكون مصحوباً بنوع من الاهتمام والشعور بالواجب – هذا التفكير يتعدّى دراسة الظاهرة **من حيث ما هي عليه** ، إلى الظاهرة من حيث **ما يجب أن تكون عليه** . إنه يبحث عن القِيَم في وسط الحقائق ؛ ويبحث عن المُثُل العليا في وسط الظواهر . هذا التفكير يمتزج بالسرور والبهجة عندما يرى خيرا قد تحقق للإنسانية – ويمتزج بالحزن والألم عندما يرى الناس يتألمون ويقاسون ألوانا من الشرور ، ويزداد هذا الحزن إذا شعر الإنسان المفكر المهتم أن جانبا من آلام الناس ومعاناتهم جاء نتيجةً لاهماله أو تقصيره ، فيشعر الانسان بالندم الشخصي وتقريع الضمير ... ثم يتطلع إلى تصحيح هذا الخطأ ويدعو إلى تحقيق المثل العليا في المجتمع .

إن مثل هذا التفكير المهتم هو الخطوة الأولى نحو الصلاة ... أو الخطوة الأولى في الصلاة .

وهل يختلف التطلع نحو كمال المُثُل العليا في الحياة ، عن الطلبة القائلة «ليأت ملكوتك» ؟ .. إنه نفس الشيء بأسلوب آخر . وهل يختلف السرور والرضا عن كل ما هو سام وجليل عن الطلبة القائلة «ليتقدس إسمك» ؟ .. وهل يختلف شعور الإنسان بالحزن والندم من أجل تقصيره

في حق الغير عن صلاة الاعتراف والتوبة التى تطلب «واغفر لنا ذنوبنا» ؟

إن الصلاة الحقيقية ليست هروبا من الواقع ، لكنها معاناة وفكر واهتمام وشفقة على من يواجهون مختلف الظروف .

ولقد ظهرت في السنوات الأخيرة طرق وخطوات لتدريب الانسان على الاحساس بغيره ، أُطلق عليها اسم «التدريب على الحساسية» (Sensitivity Training) وأصبح لها نظريات وتطبيقات ، هدفها أن يشعر الإنسان شعورا واضحا محسوسا بغيره وبحاجات الغير . وربما كانت بعض أساليب هذه التدريبات موضع تساؤل ، ولكن الفكرة في حد ذاتها وجيهة ، والتفكير المهتم الشفوق بالآخرين أسلوب فعّال لتحقيق هذا الهدف .

إن الصلاة كتفكير شفوق على الآخرين في حضرة الله هي بذاتها الصلاة لأجل الغير . ونحن في هذه الصلاة لا ننمي هذه المشاعر لمجرد تحريكنا نحن أنفسنا للعمل ، أي مجرد تدريب سيكلوجي ، ولكننا نقدم هذا الفكر الشفوق في حضرة الله باعتباره شريكنا في كل موقف ، ومعيننا ومتضامنا معنا فيما نفكر في عمله .

٢ - والصلاة تفكير مسئول :

وكلمة «مسئولية» مشتقة من «سؤال» ، والذي يُسأل يجب أن يجيب . وهذا هو معنى الشعور بالمسئولية ، أن يشعر الانسان بأنه ملتزم أمام غيره بأن يجيب وأن يقدم حسابا عما يفعل ، وعما أوكل إليه من

عمل وامكانيات . وإذا كانت آفة عصرنا هي الانانية ، فإن الشعور بالمسئولية هو الخروج من الذات للتجاوب الملتزم أمام حاجات وطلبات الغير .

فكيف يكون التفكير المسئول صلاة ؟

إن الانسان يضيف إلى مسئوليته أمام الغير بُعدا آخر أو طرفا آخر هو الله . فهو يشعر بمسئوليته نحو الغير أمام الله الذي يفحص أعماق القلوب ، وبذلك تصير المسئولية حقيقة لا يمكنه التهرب منها .

ومن هذا التفكير المسئول يمكننا أن ندخل إلى أعماق أخرى في الصلاة . فنحن عندما نصلي نفكر جدّيا فيما نصلي لأجله ، ولو أن الله أعطانا فعلا ما نطلبه فهل نستطيع أن نستخدمه استخداما كاملا مفيدا ونكون مستعدين للمساءلة عنه ؛ أم أننا ننساق في طلباتنا وراء شعارات نقولها دون وعي أو فهم ؟

إن الصلاة تفكير مسئول وتدريب مستمر لنا لنعمل في سبيل تحقيق ما نصلي لأجله . فكم من أناس يصلّون لأجل النهضة وهم غافلون ، أو وهم يسلكون سلوكا معطِلاً للنهضة ! وكم من الناس يصلّون لأجل الرخاء وهم كسالى لا يقومون بواجبهم ! وكم يصلون لأجل الكنيسة وهم لا يحضرونها ولا يشاركون بالخدمة فيها !.. وهكذا في مختلف المجالات .

إننا في كل مرة نصلي صلاة التفكير المسئول ، نقف أمام نفوسنا في

حضرة الله لنسأل ذواتنا هل استخدمنا ما لدينا حتى نطلب المزيد ؟ هل نحن أمناء في القليل حتى نطلب الكثير ؟ هل قمنا بمسئوليتنا حتى نطلب من الله معاونتنا ؟

إن المسئولية ليست سهلة ، فقد كانت صلاة السيد المسيح فى بستان جسثيماني نوعا من الحوار المسئول مع النفس أمام الآب . فيسوع كإنسان شعر بثقل العبء ومرارة الكأس التي كان عليه أن يتجرعها من أجل خلاص البشر ، حتى إنه صرخ : « يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس » . لكنه بشعور المسئول عن خلاص البشر ، وقد قبل المسئولية طوعا ، شعر بأنه لهذا قد أتى إلى العالم . وفي هذا الحوار مع النفس استطاع أخيرا أن يصلي قائلا : «إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها ، فلتكن مشيئتك» (مت ٢٦) يا له من تفكير مسئول !! يا لها من صلاة !!

٣ - الصلاة تفكير شاكر :

فعندما نفكر ندرك أننا لا نستحق نعمة الله التي تحفظنا وترعانا ... ولابد أن يرتبط هذا الادراك بالشكر فنرفع إلى الله صلاة شاكرة . والشكر لا يكون حقيقيا إلا إذا كان نتيجة ادراك واقتناع ، وإلا كان كلمات جوفاء لا معنى لها .

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال أخير : ألا توجد مشاعر الشفقة والاهتمام والمسئولية والشكر عند أي إنسان ، فما الذي يميّز صلاة المسيحى عن غيره ؟

والجواب هو أننا كمسيحيين قد كشف الله لنا أبعاد النعمة وأعماقها في شخص الرب يسوع المسيح بصورة تجعلنا نختبر هذه النعمة من خلال المسيح وبسببه ، ولذلك فنحن نرفع كل صلاة من خلال المسيح وفي اسمه . وهذا يجعل فريضة الأفخارستيا عنصرا اساسيا في العبادة المسيحية !

الفصـل الخامـس

الأفخارستيا

(فريضة الشكر)

«الأفخارستيا» أحد الأسماء التي تطلق على فريضة «عشاء الرب»، واللفظ مشتق من كلمة يونانية معناها «الشكر»، باعتبار أن الشكر عمل هام قام به السيد المسيح عند إجراء هذه الفريضة، فإنه «أخذ الخبز وبارك ... وأخذ الكأس وشكر» (مت ٢٦ : ٢٦، ٢٧)

ونحن في هذه الدراسة لن نتحدث عن العقيدة اللاهوتية في هذه الفريضة، ولن نتعرض لمناقشة اعتقادات مختلف الكنائس التقليدية الشرقية منها والغربية، والكنائس المصلحة بأنواعها، والكنائس الحرة في هذا الموضوع. ذلك لأنه توجد اختلافات كثيرة في اعتقادات هذه الكنائس

بشأن هذه الفريضة ، وفاعليتها ، وأسلوب ممارستها ... ولن نحاول هنا أن نؤيد رأياً وندحض آخر ، لأننا لا نريد أن ندخل في هذا النوع من النقاش والجدل – وليس احجامنا عن هذا الاتجاه إقلالاً من أهمية العقيدة الصحيحة ، أو نقصا في حماسنا لعقيدتنا الخاصة في هذا الموضوع ؛ وإنما لأننا نحاول أن ندرس الموضوع من زاوية معينة ، وهي أهمية هذه الفريضة أو هذا السرّ ، ومركزه الحيّوي في العبادة المسيحية . ولابدَّ أن حديثنا سيتضمن إشارات إلى العقيدة ، إلا أننا نرجو أن تكون هذه الاشارات عامة بشكل يحصر انتباهنا في موضوعنا الرئيسي دون غيره .

ولقد اخترت هذا الاسم « الأفخارستيا » أو فريضة الشكر من بين الأسماء الكثيرة التي تطلق على هذه الفريضة ، كالعشاء الرباني ، وعشاء الرب ، وكسر الخبز وسر المذبح والحمل والذبيحة ؛ أولاً لأن جميع الكنائس تقريبا متفقة على هذا الاسم دون اعتراض عليه ؛ وثانيا لأن هذا الاسم أو اللقب أقرب الأسماء إلى معنى العبادة ومضمونها ؛ فجوهر العبادة شكر وحمد وتسبيح لله ، وتكريس النفس وعطاء الذات له ، كما قال رسول العبرانيين :

« لذلك ونحن قابلون ملكوتا لا يتزعزع ، ليكن عندنا شكر به نخدم الله خدمةً مرضيّة بخشوع وتقوى ، لأن إلهنا نارٌ آكلة » (عب ١٢ : ٢٨ و ٢٩)

أولاً : الحق الروحي والعلامة الظاهرة :

العبادة المسيحية تتضمن امتزاجا لعنصرين هما : شيء ننطق به ، وشيء

نعمله . وكلا العنصرين تجسيد وتجاوب مع كلمة الله المعلنة لفدائنا . فإذا كانت هناك أمورٌ ننطق بها في العبادة كالصلاة والتسبيح ، فإن الفريضة هي ما نعمله في العبادة . وقد عرَّف جون كالفن الفريضة أو السرّ بأنه :

«علامة خارجية بها يختم (يطبع) الله على ضمائرنا مواعيد إرادته الصالحة نحونا ليقوّي ضعف إيماننا ويثبتنا» (النظم اللاهوتية ٤/١٤/١)

وقال أيضا : «إن هذه الفرائض تشير إلى أمور غير منظورة بأسلوب يتفق مع قدرتنا الضعيفة ، وفيها يُعرَض الحق الروحي ويتمثل لنا فى العلامات الظاهرة ، وفي الفرائض يُقَدَّم المسيح لنا بصورة أوضح» (٤/١٧/١١)

«فالمعمودية تشهد بأننا غُسلنا وتطهرنا ، وعشاء الأفخارستيا يشهد بأننا قد أُفتدينا» (٤/١٤/٢٢)

وقد شبه أحدهم العلاقة بين العلامة الحسيّة والحقيقة المعنوية ، قائلاً :

«إن خاتم الزواج يعتبر من أظهر الأمور في خدمة الزواج ، مع أن الخاتم نفسه لا يصنع الزواج ولا يعطيه شرعية . إن الزواج يتم عندما يعلن كل من الزوج والزوجة قبول كلّ واحد منهما للآخر ، ويتعهدان بالمحبة والوفاء كل أيام الحياة ، ويتقدس بالصلاة . لكن الخاتم هو علامة خارجية منظورة تختم الوعد والتعهد الذي تعهّد به كلٌّ منهما . فالوعد هو الأمر الحيوي ، ولكن الخاتم يعبّر عن هذا الوعد في صورة منظورة ، وتلبسه المرأة كل أيام حياتها رمزاً لعهد الحب والوفاء»

هكذا الفريضة بالنسبة للكنيسة ، إنها علامة ختم لمواعيد الله . إن الأساس هو وعد الله بالغفران والخلاص ، كما قال مارتن لوثر : «إن كلمة الله وحدها (يقصد اعلان الله كلمة الإنجيل للخلاص) هي وسيلة النعمة» ، والفرائض أشبه بكلمة منظورة توضح هذه النعمة . من هذا الفكر نتبين أمرين :

الأول : هو أنه مادامت الفرائض تجسِّد أي تعلن بصورة حسيّة انجيل غفران الله ونعمته ، إذاً يكون الأمر الحيوي في هذه الفرائض هو عمل الله وليس اختبار الإنسان – فإن الله هو الذي يدعو ، ويجدد ، ويأتي ، ويعطى نفسه . إن عمل الله هو الأول والآخر ، وعبادتنا ماهي إلا تجاوباً معه أو بتعبير أوضح هي «كلمات نرد بها على كلمته لنا» – إذاً ففاعلية العشاء الرباني لاتقاس بمقدار تأثرنا العاطفي ونحن على مائدة الرب ؛ فإن المسيح هو الذي يقدم لنا نفسه من خلال الخبز المكسور والخمر المصبوب . هذا لايعني عدم أهمية موقف الإنسان ازاء الفريضة ؛ إنما نتكلم عن التأثيرات النفسية ، ونؤكد المبدأ : أن الأساس في عملية الخلاص هو الله «بالنعمة أنتم مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم . هو عطية الله» (أف ٢ : ٨)

والأمر الثانى : إنه مادام خلاصنا قد أكمله المسيح بموته وقيامته ، لذلك فإن هذه الفرائض التي تشير إلى عمل الخلاص تكون رمزاً إلى ماعمله المسيح ، وليست رمزاً إلى جوهر المسيح أو طبيعته . وعلى هذا الأساس فإن النعمة التي توصلها الينا الفرائض لاتوصلها الينا عن طريق العناصر

ذاتها (الخبز والكأس) بل عن طريق الممارسة ، أي ممارسة الكنيسة لهذه الفريضة . فالفريضة إذاً لا تركز على العناصر بقدر تعبيرها عن الكيفية التي قدّم بها المسيح هذه العناصر في الفريضة . لأن الرب يسوع أخذ خبزا وكسره بعد أن بارك ثم اعطاهم . وكذلك أمسك بالكأس بيديه وأعطاهم . ولم يطلب المسيح من تلاميذه أن يتأملوا هذا العمل الذي عمله من أجلهم وأن يذكروه ؛ بل طلب منهم أن يكرروا ماعمله هو إذ قال لهم : «اصنعوا هذا لذكري» – أي أن التركيز هنا كان على الممارسة .

ثانيا : مركزية الأفخارستيا في المسيحية :

لو أمعنّا النظر لوجدنا أن فريضة الأفخارستيا تلخص في ذاتها ومعناها وممارستها العبادة المسيحية ، والاختبار المسيحى ، واللاهوت المسيحي في غنىً مذهل ، وتبدو كأنها تشمل الكلّ . فهى تجمع بين الكلمة المنطوقة والممارسة ؛ وتخاطب الروح كما تخاطب الحواس ؛ وتربط بين ذبيحة الجلجثة وحضور المسيح المقام ؛ وتقدم للمؤمنين فرصة الشركة مع الله ومع بعضهم البعض ؛ وتشير ضمن ماتشير إلى عدة عقائد مسيحية .

فهى تعلمنا عقيدة الخلق إذ نقدم أنفسنا لله مع الخبز والخمر والكل من خليقته ؛ وتقدّم لنا عقيدة الخلاص بدم المسيح الذي يطهرنا من كل خطية ؛ وباتحادنا بالمسيح تتقدس حياتنا . والفريضة تقدم لنا عقيدة الكفارة مرموزا إليها بالخبز المكسور والدم المسفوك . ولأن هذه العناصر

يجب أن تَكْسَرِ وتُعْصَرَ لتحقق رسالتها ، هكذا يجب أن تنكسر نفوسنا بالتوبة .

والفريضة تقدم لنا عقيدة التجسّد ، لأنها تذكرنا بالكلمة الذي صار جسدًا ، فنعرف أننا لا نعبد إلهاً بعيداً عنا ، بل إلهًا جاء إلينا وحلَّ بيننا ورأيناه .

وفي الفريضة نرى صورة الكنيسة كجسد المسيح ، واخوة متحدين ، وجماعة لهم نظام تحت قيادة الرأس .

والأفخارستيا تربط الماضى بالحاضر بالمستقبل ، فهي تربطنا مع كنيسة العهد القديم التى عاشت في الرموز وكانت تمارس فريضة الفصح ، وتحدثنا عن مسئوليات اليوم لنخبر بموت المسيح ونعلن انجيله ، وتشير إلى المستقبل الذي سيجيء فيه المسيح على سحاب المجد لكي يأخذ كنيسته لتجلس في وليمة عشاء عرس الحمل .

فيا لروعة وغنى كل هذه المعاني التي نراها تتمركز في هذه الفريضة المقدسة .

ثالثا : جوانب من العبادة في الأفخارستيا :

كما أن المعمودية اشارة إلى بدء الحياة المسيحية وعلامة وختم لتطعيمنا في المسيح ؛ فإن الأفخارستيا تعبير عن استمرار الحياة المسيحية ، فهى واسطة من وسائط النعمة ، وعن طريقها نستطيع أن نلمس بكيفية واضحة كيف يعطي الرب ذاته لنا وكيف نعطي نحن ذواتنا للرب . وفي

هذه الفريضة نقبل مايعطيه الله لنا ، وبواسطة هذا الذي نقبله نصير نحن ماتعمله فينا النعمة ، أي نتجدد يوما فيوما ، ومن ثمَّ نقدم ذواتنا لله ذبيحة حيّة مقدسة مرضية عند الرب .

لأجل هذا فإن لفريضة الأفخارستيا مكانا مركزيا فى العبادة المسيحية . فهى تربطنا بسلسلة لاتنقطع من الشهود الأمناء منذ الاجتماع فى عليّة أورشليم وترفع أنظارنا وأشواقنا إلى المستقبل حينما نجلس معاً في عشاء عرس الحمل .

على أن الفريضة لاتقف وحدها ، بل هي ذروة العبادة المسيحية ، ويسبقها قراءة الكلمة المقدسة ، وشرح الكلمة التي تعلن إنجيل الله لخلاصنا ، واقرار إيماننا بقانون الإيمان ، وتسبيح الله بالترنيم له .

وقبل التقدم إلى مائدة الرب يكون الانسان في حالة فحص نفسه أمام الرب . وقد جاء في أصول الإيمان : «إنه يُطلب من الذين يريدون أن يشتركوا باستحقاق في العشاء الرباني أن يمتحنوا أنفسهم فيما يتعلق بمعرفتهم تمييز جسد الرب ، وإيمانهم للاغتذاء بالمسيح ، وتوبتهم ومحبتهم وطاعتهم الجديدة ، لكي لايكونوا غير مستحقين فيأكلون ويشربون دينونة لأنفسهم» .

إن المسيح يقدّم إنجيله للبشر الساقطين المحتاجين إلى الخلاص ، وقد رسم هذه الفريضة للبشر المعرّضين لكل عوامل الضعف ، والمقصود بالإستحقاق هنا ، ليس استحقاق الإنسان في ذاته أوأعماله ؛ ولكن الاستحقاق المبني على كفارة المسيح وقبول فوائدها بواسطة الايمان

الخلاصي . فالرسول هنا يحذّر المستخف والمجدّف الذي يتقدم إلى مائدة الرب بلا اهتمام وبلا وقار وبلا توبة ولا تواضع ؛ لكنه لا يمنع الضعيف المرتجف ، الشاعر بنقصه ، والملتجيء إلى نعمة المسيح . وامتحان النفس معناه أنه يجب على المتقدمين إلى التناول من الفريضة ألا يكتفوا بالقول في أنفسهم إنهم قد اعترفوا بإيمانهم بالمسيح مرةً وكفى ، بل عليهم أن يجددّوا هذا الاعتراف بالايمان ، وأن يجددّوا توبتهم . فالتوبة الأولى عند نوال الخلاص تتعلق بالخطايا التي ارتكبها الانسان بتمرده علي الله ومحاولته الاستقلال بنفسه ؛ أما التوبة بعد التجديد فتتعلق بالخطايا التى ارتكبها الإنسان باعتباره ابنًا لله جرح قلب ابيه المحبّ .

وعلى المتقدم أن يسأل نفسه عن محبته لله ومحبته للآخرين ، وطاعته للمسيح .

وهكذا نرى في الاستعداد للتقدم للتناول من عشاء الأفخارستيا تعبداً وخشوعاً وتوبةً وخضوعاً للرب . وفي هذه الروح ، تمارس الفريضة . ونجد في كل خطوة من خطواتها جانبا من العبادة ، نشير إليها بحسب ترتيب الأفعال التي تصف ممارسة الفريضة : أخذ - شكر - كسَّر - أعطى .

١ - **العطـاء** : «أخذ ....»

عند إجراء الفريضة في علية أورشليم كان على المائدة طعام ، ومن مواد الطعام الموجودة أخذ الرب يسوع الخبز والخمر . كان الطعام

تقدمة من ثمر الأرض وضعه الناس على المائدة تعبيرا عن تقديم نفوسهم وممتلكاتهم لخدمة الرب .

وفي الكنيسة المسيحية الأولى كان الإخوة يجتمعون في وليمة المحبة ، ويضعون فوق المائدة من الخيرات التي يعطيها الله لهم ؛ ومن بين عناصر هذه الخيرات الزمانية ، كان الخبز والخمر وهما عنصرا الفريضة .

وقد ذكر بعض الباحثين أنه في النظام المسيحي القديم لهذه الفريضة ، كانت ممارستها أشبه باحتفال شكر من أجل بركات الخليقة حيث كانت التقدمات العينية من ثمر الأرض وغلاتها تقدّم على المائدة اعترافا ببركات الله ، وسلطانه على الخليقة ، ومن بين هذه التقدمات كان القسيس يأخذ الخبز والخمر ، ويمارس بهما الفريضة . وبمرور الزمن حلّت تقدمات النقود بدلاً من التقدمات العينية ، وتغير الأمر ، وأصبح الناس يقدمون عطاياهم من المال بأسلوب آخر كالأطباق أو المظاريف ، وتطورت الأمور في بعض الكنائس وأصبحت العطايا التي تقدم في خدمة العبادة في الكنيسة شيئا رمزيا ، بينما يقدم الناس عطاياهم بطرق أخرى كالتعهدات أو الاشتراكات ..

إلا أنه ماأجمل أن نحتفظ بالمعنى الجميل القديم حتى لو اضطرتنا الظروف المتغيرة إلى تعديل أسلوب تقديم عطايانا ... ماأجمل أن نأتي أمام الله ولا نظهر أمامه فارغين بل نقدم له رمز شكرنا وتمتعنا بعطاياه . إن مانملكه هو من عند الله ، ونحن نعطيه من يده ، وهو صاحب الكل ؛ ومع ذلك فإن مانقدمه من عطايا لله ، يعيده الله لنا بركة

مضاعفة ، متمثلة في عناصر الفريضة التي نقدمها نحن لله ، فيأخذها المسيح ثم يعطينا إياها في صورة مقدسة مباركة .

وما أجمل أن تكون خدمة تقديم العطايا جزءا حيويا من عبادتنا ، فنقدمها فرحين شاكرين مهللين معترفين بفضله ممجدين اسمه .

لقد وقف داود مصليا لله وقد انتدب الشعب مما يمتلك من معادن ومواد لبناء الهيكل ، فقال داود فى صلاته :

« لك يارب العظمة والجبروت والجلال والبهاء والمجد لأن لك كل ما فى السموات والأرض . لك يارب المُلك وقد ارتفعتَ رأسا على الجميع . والغنى والكرامة من لدنك وأنت تتسلط على الجميع وبيدك القوة والجبروت وبيدك تعظيم وتشديد الجميع . »

« والآن ياإلهنا نحمدك ونسبح اسمك الجليل . ولكن من أنا ومن هو شعبي حتى نستطيع أن ننتدب هكذا لأن منك الجميع ومن يدك أعطيناك » (١ أخ ٢٩ : ١١ – ١٤)

٢ الشــكر : « شَكَرَ »

بعد أن أخذ الرب الخبز وكذلك بعد أن أخذ الكأس « شكر » ، ومن هذه الكلمة (صلاة الشكر) بالذات أخذت الفريضة اسمها القديم « الأفخارستيا » – كدليل على أهمية صلاة الشكر هذه .

ونستطيع أن نتصور الأشياء التى شكر المسيح لأجلها : فهو غالبا

شكر الآب من أجل الخليقة التي خلقها ، ومن أجل الفداء الذي سيقدمه للبشر .

دعونا نذكر أن الرب يسوع شكر وهو يعلم أنه يقترب من الصليب ، شكر وهو يدرك تماما أن جسده سيُكسَر ، وأن دمه سيُسْفَك . شكر وهو يحس بمقدار التضحية التى سيقدمها ... لكنه من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهينا بالخزي .

ومن ممارسة الفريضة يستطيع المتعبد أن يعرف معنى الشكر الحقيقى . وان كان طبيعياً أن يشكر الانسان لأنه أخذ من الله بركات وهبات ؛ لكن المسيحي يستطيع أن يتجاوز هذا إلى الشكر لأجل فرص الخدمة والعطاء والبذل ، لأن في ذلك تحقيقا لرسالة أعظم وأسمى « شاكرين كل حين على كل شيء في اسم ربنا يسوع المسيح لله والآب » (أف ٥ : ٢٠)

وقد كانت صلاة الشكر على مائدة العشاء الرباني في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلادي نموذجا رائعا للشكر المسيحي ، وإن لم تكن لها صيغة ثابتة . فقد كان الخادم يبدأ بتحية الشعب بالتحية المعتادة « الرب معكم » فيجيبه الشعب « ومع روحك » ثم يقول للشعب « ارفعوا قلوبكم .. » فيجيبه الشعب « إلى الرب نرفع قلوبنا .. » فيقول الخادم « هيا نشكر الرب » فيجيبه الشعب « يليق للرب الشكر والتسبيح » .

وبعد ذلك يرفع الخادم صلاة شكر إلى الله من أجل الخليقة المنظورة

وغير المنظورة ، ويردد ويعدّد تعاملات الله مع شعبه على مدى السنين ، وكأنما تتراءى للشعب قصة الخلاص العظيم ، فيردد الجمهور أنشودة السرافيم« قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض» ثم يواصل الخادم صلاة الشكر ذاكراً آلام المسيح طالبا من الروح القدس أن يبارك تقدمات الخبز والخمر حتى تصير شركة جسد المسيح ودمه ، وحتى تكون الكنيسة فيما تقدمه قد قدمت ذاتها للرب .

وقد تنوعت صلوات الشكر على مائدة العشاء الرباني في الكنائس المختلفة ، ونحن لا نوصي بصيغة معينة أو أسلوب معين ، لكن ما نرجوه هو أن تكون صلاة الشكر معبّرة عن شعور جماعة متعبدة بالحق ، تقدم ذاتها للمسيح ؛ وأن تكون في كلماتها ومعانيها وأسلوبها فرصة لجميع المشتركين أن يدركوا أعمال الله الرائعة في الفداء ، وأن يفيض الشكر الحقيقي للرب من قلوبهم ، فتتميز اتجاهاتهم نحو الرب عن سائر المشاعر الإنسانية الشاكرة ... لأنه ماذا نرد للرب من أجل كل حسناته ... كأس الخلاص نتناول وباسم الرب ندعو .

٣ - كَسْر الخبز : «وكَسَّرَ»

أخذ الرب يسوع الخبز وشكر ثم كسَّر . وقد اطلقت الكنيسة المسيحية الأولى على الفريضة « كسر الخبز » دلالة على أهمية هذا العمل الذي أجراه يسوع . هنا عمل يسوع شيئاً محدداً أمام التلاميذ ... ولعله عندما أخذ الكأس أراد أن يذكّر التلاميذ بالمعصرة التى عُصِير فيها العنب قبل أن يكون خمراً ، باشارته واستخدامه للتعبير « نتاج الكرمة هذا»

(متى ٢٦ : ٢٩) وكان على التلاميذ أن ينظروا ويتأملوا ... إنها فرصة للتأمل الروحي الخاشع الصامت المليء بالفكر والخيال ...

كان لابدَّ أن يُكِسَر الخبز ، فالرغيف لا يؤكل صحيحا ... وكان لابدَّ أن يموت المسيح . فكما أن الطعام يجب أن يتكسَّر إلى أجزاء لكي يكون مفيدًا لنا ، هكذا كان ينبغي أن يُكسَر جسد المسيح لكي يخلّصنا .

ونحن أيضاً ، ينبغي أن ننكسر قبل أن ننال البركة ونكون بركة . الإرادة الذاتية ومحبة النفس فينا يجب أن تنكسرا وتذوبا في المحبة الإلهية والارادة الإلهية .

وكان على الدم أن يُسفك حتى تكون لنا مغفرة الخطايا ... ونحن أيضا يجب أن نقبل التضحية والموت لكي تعيش رسالتنا .

وفي لحظات التأمل تتجه الروح إلى الله ، فإن الخبز والخمر ليست فيهما قداسة فعلية ، بل إنهما أداة توحي لنا إذ تنكسر وتُسكَب بما عمله المسيح ، وتذكرنا بذلك ، وبما يجب أن نعمله نحن . إن التقديس الفعلي يكون عندما تنكسر قلوبنا وارادتنا وتنسكب نفوسنا أمام الله .

٤ - التناول : «وأعطى»

وهنا نرى روح التقّبل في العبادة المسيحية . إنه يعطينا وما علينا إلا أن نقبل . وهذا ما يميّز العبادة المسيحية عن العبادة الوثنية ، فالوثنيون كانوا يقدمون لله ، ويفكرون كثيرا فيما يمكن أن يفعلوه لاسترضاء وجه

الآلهة ، لكن العبادة المسيحية هي أن نتقبل من الله ذاته وحبّه وغفرانه .

ونحن نتناول من الله مايقدمه لنا في روح التكريس والشكر والتمجيد .

نحن نغتذي بالمسيح فيصير هو غذاءنا الروحي ، حمل الله الذي اقترب منا بالتجسد إذ أخذ صورة جسدنا ، ونحن نطعنه ونصلبه بخطايانا ، لكنه بجسده المكسور ، وبدمه المسفوك أي حياته المنسكبة يغطي خطايانا ويسترها أو يكفر عنها (Cover) حتى لا نظهر بها قدام الله ؛ وإذ يظهر هو أمامنا قدام عرش الله نستطيع أن نتقدم به إلى الله فنجد رحمة وننال نعمة عونا في حينه .

رابعاً : الجسد الواحد :

ولا نستطيع أن ننتهى من الحديث عن مظاهر العبادة في الأفخارستيا دون أن نشير إلى حقيقة هامة ، وهي أن السيد المسيح مارس هذه الفريضة مع تلاميذه كجماعة وليسوا كأفراد . فقد قال لهم : « خذوا — كلوا — اشربوا — اصنعوا هذا لذكري » . أى أن الفريضة لا تكون صحيحة ومعبّرة إلا في وسط الجماعة المؤمنة — هناك أمور يمكن للإنسان أن يتعبد بها لله بمفرده ، كالصلاة الفردية ، والقراءة الشخصية لكلمة الله ، والتعبد الشخصي . لكن الأفخارستيا هي فريضة الكنيسة باعتبارها جسد المسيح الواحد .

ولقد كانت الكنيسة المسيحية الأولى هي المكان الوحيد الذي

تحطمت فيه الحواجز التى كانت تفصل العالم وتمزقه ... فقد كان العالم حينذاك مقسّما إلى أحرار وعبيد ؛ إلى يونانيين وبرابرة (لا يتكلمون اليونانية) ؛ إلى يهود وأمم ؛ إلى مواطنين في الدولة الرومانية ومواطنين من جنسيات أخرى اعتبرت أقل في الدرجة ، إلى متعلمين وجهلاء — أما الكنيسة المسيحية فكانت المكان الوحيد الذي فيه يمكن لجميع هؤلاء أن يجتمعوا معاً على مائدة الرب ... هناك اختفت الفوارق ، واتحدت النفوس .

والسرُّ في ذلك ليس استنارة فكرية أو نظرة اجتماعية تقدّمية ، ولكن اتحاد هؤلاء جميعا بشخص المسيح وجلوسهم على مائدة واحدة يشتركون جميعهم فيها في الخبز الواحد والكأس الواحدة ، دليل على أنهم قد صاروا جسدًا واحداً ، ودافع لهم على الاحساس بالمسئولية ازاء ذلك .

«كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح . الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح . فإننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأننا جميعا نشترك في الخبز الواحد» . (١كو ١٠ : ١٦ ، ١٧)

فالفريضة هي للكنيسة كجماعة متحدة ، والفريضة هي أساس وحدتها بمدلولها الذى يشير إلى الاتحاد بالمسيح .

لذلك فإننا فى عبادتنا لله ، ونحن نعظمّه ونمجده لأجل عمله ، نشعر بوحدتنا معاً ، «لكي لا يكون انشقاق في الجسد بل تهتم الأعضاء اهتماما

واحدا بعضها لبعض . فإن كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه . وان كان عضو واحد يكرّم فجميع الأعضاء تفرح معه» (١كو ١٢ : ٢٥ ، ٢٦)

فلا يمكن للأناني ، اللامبالي بغيره ، المترّفع عن إخوته أن يتعبد لله عبادة صحيحة ... إذ كيف يستطيع بهذه الروح أن يجلس معهم على مائدة الرب ؟!!

خامساً : الحضور الإلهي في الأفخارستيا :

هذه الفريضة هي ذروة العبادة المسيحية ، ويتوّج هذه الذروة حضور السيد المسيح بشكل خاص في أثناء ممارستها .

ولسنا نريد – كما أسلفنا – أن ندخل في جدل حول اعتقادات الكنائس المختلفة بشأن هذا الحضور ؛ ولكننا نجد أنفسنا مضطرين أن نسرد الآراء المختلفة لنوضح أن جميع المذاهب المسيحية أقرّت حضور المسيح بصورة أو أخرى في أثناء ممارسة هذه الفريضة ، فيما عدا الرأى التذكاري المجرد الذي عاد به المصلح زوينجلي الذي يرى أن العشاء الرباني مجرد تذكار لموت المسيح من غير أن تكون فيه أدنى فاعلية في حد ذاته ، وأن المسيح لا يحضر فيه على الاطلاق لا جسديا ولا روحيا ولذلك لا يُحسب من بين وسائط النعمة إنما هو تذكار لموت المسيح وشهادة لإيمان المتناول فقط . هذا الرأى جرّد العشاء الرباني من كل صبغة روحية وأخرجه عن قدسيّته . ولو كان العشاء الرباني لمجرد الذكرى فما

الداعى إذاً لفحص النفس وامتحانها قبل التناول منه ؟ (١كو ١١ : ٢٧ - ٣٠) - ولماذا لا يُباح للمترددين على سماع كلمة الإنجيل أن يشاركوا المؤمنين فيه سواء بسواء ؟ ولقد قيل إن زوينجلى نفسه أظهر عدم ارتياحه لهذا الرأي قبل وفاته .

أما باقى الكنائس فتؤكد حضور السيد المسيح في الفريضة .

فالكنائس التقليدية الغربية والشرقية تقول إن الخبز يتحول إلى جسد المسيح ، والخمر يتحول إلى دم المسيح ، وبذلك يكون السيد المسيح حاضراً جسديا في الفريضة ، وتكون للفريضة نعمة ذاتية تطهر الذين يتناولونها «فعلاً مفعولاً» ، ونوال هذه الفائدة لا يتوقف على ايمان المتناول ، بل يقتضي مجرد عدم مقاومته لهذا الفعل . فكما أن النار تشتعل لأن الله أودع فيها قوة الاشتعال كذلك الأسرار توصل النعمة لأن الله أودعها قوة على ذلك .

وتقول الكنائس اللوثرية إن الخبز والخمر لا يتحولان إلى جسد المسيح ودمه ، إلا أن المسيح يكون حاضرا في الفريضة جسديا ويرافق العنصرين على منوال سرّي والمتناول يقبل المسيح فعلا وبمعنى سرّي بتناوله الخبز والكأس مع أنهما لا يتحولان إلى جسد ودم . على أن فاعلية عشاء الرب تتوقف على ايمان المتناول . فعدم الإيمان يمنع فاعلية السرّ .

وتقول الكنائس الإنجيلية المُصلَحة (الكلفينية) إن المسيح يحضر روحيا في الفريضة ، وفاعلية الفريضة تحصل بواسطة الروح القدس

الذي يرافق العشاء الرباني ، ويبلّغ فوائده إلى قلوب الذين يتناولونه بالإيمان ، ويوّثق روابط الاتحاد بين المؤمنين وبين المسيح ، وبذلك تُبْنَى حياتهم الروحية .

وسوف لا نناقش هذه الآراء ، لكننا نريد أن نتأمل قليلا في معنى **حضور** المسيح في الفريضة .

إننا لو تأملنا الكلمة «حضور» لوجدنا أن للحضور ثلاثة طرق :

١ – فهناك **الحضور الزمني** ، عندما يرتبط وجود شيء ما أو شخص ما بزمان معيّن . فإذا قال واحد أنه يشعر **الآن** بألم معين في مكان معين ، فمعنى ذلك أن هذا شعوره في **الحاضر** ، ليس بالأمس أو غداً .

٢ – وهناك **الحضور المكانيّ** فإذا وُجد شخص ما في مكان معيّن ، كان معنى ذلكَ أنه بعيد عن غيره من الأماكن . والحاضر يكون قريبا من أو موجودا في المكان الذي نتحدث عن حضوره فيه .

٣ – وهناك **الحضور الشخصيّ** ، وعادة يشمل الحضور الشخصي النوعين السابقين من الحضور (الزماني والمكاني) ولكنه يكون أقوى وأعمق من كليهما ، لأنه ليس مجرد **تواجد** زماني أو مكاني ، بل إن هذا التواجد مرتبط بالأثر الشخصي للحاضر ، واتصاله بغيره . عندما نقول إن فلانا له **حضور** عندما يتواجد في زمان أو مكان معين ، فنحن نقصد أن الجميع يشعرون بأثر هذا التواجد ، ويحسون بأهميته وفاعليته .

وقد يكون الشخص في مكان بعيد ، لكننا نطلبه في مؤتمر بالتليفون

ونسمع صوته ونتبادل معه الآراء ونقول إنه حاضر كأنه بشخصه أي بفكره ورأيه وأثره في موقف معين – وقد يكون الشخص حاضرا بفكره ورأيه المكتوب رغم عدم الحضور المكانى .

هذه هى معاني **الحضور** عندما نتحدث عن الأشخاص المحدودين والأشياء المحدودة .. لكننا إذ تحدثنا عن الله تعالى فإننا لانستطيع أن نطبق عليه هذه المحدودية ، فنحن نعلم أن الله غير محدود بزمان أو مكان بل هو حاضر في كل زمان ومكان .. والمسيح باعتباره كلمة الله والأقنوم الثاني من اللاهوت له نفس النوعية من الحضور في كل زمان ومكان .

فكيف نوفق إذاً بين هذه العمومية في الحضور الإلهي ، وبين مانذكره عن حضور السيد المسيح في العشاء الرباني ؟

إن الله حاضر في كل مكان – هذا صحيح . لكن عندما تُقْرأ كلمته فى العبادة يكون حاضرا بصورة تربط بين الزمان والأثر الشخصي الذي تتركه كلمة الله في نفوس السامعين . إنهم يسمعون الله يتكلم ويكلمهم .

والمسيح باعتباره كلمة الله حَاضر في كل مكان ، لكنه يقول إنه إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه فهناك يكون حاضرا في وسطهم ، بمعنى أنه في اجتماع الصلاة باسمه يربط بين الحضور المكاني والحضور الشخصيّ .

و مع أن الله يملأ السموات والأرض ، ويمكن أن تعتبر كل الخليقة

هيكلا له ، لكن هناك أماكن معينة خصصت لعبادته لتكون مقادس للرب ، أي مخصصة للعبادة . وهي بذلك تكون أشبه بواحات وسط صحراء الدنيوية لتذكرنا أن «للرب الأرض وملؤها المسكونة وكل الساكنين فيها» . عندما ندخل هذه الأماكن المخصصة أي المقدسة لعبادة الرب ، نشعر بكيفية خاصة أن الرب حاضر في ذلك المكان بصورة أكثر تخصيصا من حضوره العام .

على هذا النسق نستطيع أن ندرك معنى حضور السيد المسيح في فريضة الأفخارستيا ، إذ تتجمع فيها معاني الحضور .

فالتاريخ الماضي يتحول إلى حاضر ؛ والروحيات تتمثل في محسوسات نراها ونلمسها ؛ والحضور الزماني والمكاني يدّعم بالحضور الشخصيّ ، وعمل المسيح يتمثل أمامنا بشكل درامي ، ملائم ومؤثر في طبيعتنا البشرية .. فيمتلىء العقل والوجدان وكل قوى النفس من الحضور الالهي ..

إن المسيح يحضر ويقدّم لنا ذاته ، ونحن نعترف بأننا نقبله ، ونغتذي به روحيا ..

هذا الحضور المبارك هو من أثمن وأغلى ينابيع الروحانية المسيحية التي يجب أن ننهل منها على الدوام .

وهذه هي قمة اللقاء وروعته !!

خاتمة

وهكذا نرى أن عبادتنا لله ليست شيئا نقدمه لله أو عملاً نؤديه له ، فحاشا لله الكامل فى ذاته ، والغنّى عن كل ما عداه أن يحتاج إلى شىء منّا ؛ كما أنها فى نفس الوقت ليست خضوع الذليل المقهور أمام السيد المتسلّط فحاشا لله الذى خلق الانسان على صورته أن يقبل أو يطلب من الانسان هذا الموقف ... وإنما عبادتنا لله هى اقتراب خاشع شاكر من المخلوق إلى خالقه ، فى هذا اللقاء تنمو ملكات الانسان السامية من انبهار وتمجيد وشكر وتأمل وتطلع واشواق ، فيتدرب الانسان أن يكون كما يريده الله أن يكون ، وعن طريق هذا اللقاء تطوّع ارادة الانسان أن تتناسق مع ارادة الله المعلنة فى كلام الله وشريعته ، فتتحول العقيدة العقلية إلى حياة عملية ...

وإذ يتجدد هذا اللقاء ، تتعمق العلاقة بين الانسان وخالقه ، فيختبر أكثر فأكثر ابعاداً من محبة الله وعنايته ، أو بمعنى آخر إذ يقدم لله جسده وروحه ذبيحة مرضية مقبولة عند الله فى العبادة ، يتغير شيئا فشيئا عن شكله بتجديد ذهنه ليختبر ارادة الله المرضية الكاملة ، فينمو فى النعمة ويتعرف أكثر على الله والرب يسوع المسيح ، فيدخل نوعاً جديداً من الحياة ويختبرها - هذه الحياة هى الحياة الأبدية التى يختبرها الانسان هنا ، ويكمل تمتعه بها فى المجد ...

هذا اللقاء إذاً ، هو اعداد للإنسان ليكون مهيئا للحالة المجيدة التى تنتظره ، ونحن هنا على الارض نعرف معرفة جزئية ناقصة ، لكننا إذ ننمو فى هذه المعرفة نكون مُعَّدين للمعرفة الكاملة التى وصُفت فى الكتاب انها «وجهاً لوجه» ... وهكذا نرى الزمن يتصل بالابدية التى لا زمن فيها .

من هذا المفهوم نستطيع أن ندرك الاولويات فى حياتنا وفى صلواتنا ، فتنضج هذه الصلوات لتكون تعبيراً عن اشواق مقدسة ، ورغبات روحية سامية ، وهذا هو المقصود بالقول «ملكوت الله وبرّه» كما اوصانا الرب أن نطلب أولاً .

وفى هذا النور تتوج عبادتنا بالشركة معاً على مائدة الرب حيث يقدم الله لنا ذاته فى المسيح فصحنا الذى ذبح لاجلنا لخلاصنا وتقديسنا وتمجيدنا فتكون عبادتنا عيداً للشكر والعطاء والتسبيح والشهادة . وإذ

تغمرنا نشوة الفرح واحاسيس الابتهاج ونهتف مع التلاميذ على قمة جبل التجلى «جيد يارب ان نكون ههنا» ... يوجهنا الرب الى الجانب الآخر المكمل للعبادة – هناك عند سفح الجبل حيث المحتاجين الى خدمتنا لتخفيف آلامهم وازاحة متاعبهم ، لكى ننزل إليهم بالروح الذى اكتسبناه من اللقاء لنعبّر لهم عن فيض الحبّ ، وإذ يتجاوبون مع عمل النعمة ، ويردّون صدى الحبّ ، تتسع دائرة البركة ويهرع كثيرون معنا الى جلال الشركة وجمال اللقاء ليصبحوا هم أيضا رسالة للمسيح مقروءة من جميع الناس فتمتلىء الارض من مجد الرب – هللويا .

دراسة رائعة عن معنى اللقاء مع
الله توضح المقصود بالعبادة .
وما هى العبادة الحقيقية التى ينتظرها
الله منا ؟ وكيف نلتقى مع الله فى
شركة عميقة ؟ وما هى النظرة
الصحيحة للصلاة الجماعية ؟

هذا الكتاب سيغير كثيراً
مفاهيمك عن العبادة ويدفع
مع الله .